ايريك فروم

الانسان المستلب

وآفاق تحرره

ترجمة وتعليق : د. حميد لشهب

تقديم : د. راينر فونك



ايريك فروم

الانسان المستلب

وآفاق تحرره

ترجمة وتعليق د. حميد لشهب

تقديم د. راينر فونك

المؤلف : **ايريك فروم**
الكتاب : **الانسان المستلب وآفاق تحرره**
ترجمة وتعليق **د. حميد لشهب**
تقديم **د. راينر فونك**

الـطـبـع :



الإيداع القانوني : 2003/2142

تصفيف واخراج : شركة نداكوم للطباعة والنشر
الهاتف : 50 25 68 037

إهداء

إلى الدكتور محمد سبيلا، اعترافا بدوره التنويري والتحديثي في الساحة الفكرية المغربية والعربية ومثابرته على تطعيم الحقل الفلسفي ليس فقط بنصوص ممتازة، بل وأيضا بتلاميذ مجتهدين، يحملون على عاتقهم رسالة الحداثة واستعمال أدوات النقد العقلية لفهم الواقع ومد جسور الحوار داخليا وخارجيا.

الفلسفة الإنسانية لإريك فروم

د. حميد لشهب

في إطار مشروعنا الذي يستهدف تقديم أربعة اتجاهات فلسفية معاصرة في الفلسفة الجرمانية، وبعد تقديم الاتجاه الفينومينولوجي الواقعي بترجمة أحد كتب الممثل الأول لهذا الاتجاه يوسف سايفرت: **الله كبرهان على وجود الله. إعادة تأسيس فينومينولوجي للبرهان الأنطولوجي على وجود الله**، نهتم حاليا بتقديم اتجاه آخر في هذه الفلسفة، وهو الإتجاه الإنساني كما نظر له الفيلسوف والمحلل النفسي الألماني إريك فروم. وسنركز تقديمنا لهذا المفكر في النقط الثلاثة التالية:

1. نبذة عن حياة فروم.
2. النزعة الإنسانية الفرومية.
2. أهمية فكر فروم للقرن الواحد والعشرين.

1. نبذة عن حياة فروم

ازداد إيريك بينشاس فروم Erich Pinchas Fromm في عائلة يهودية أورتودوكسية متدينة يوم 23 مارس 1900 بمدينة فرانكفورت

الألمانية. وقد كان وحيد والديه، اللذين كانا يودان أن يصبح حاخاما.

بعد حصوله على شهادة الأبيتورب، التي تعادل الباكالوريا في المغرب، انتقل إلى مدينة هايدلبيرغ Heidelberg، حيث بدأ دراسة القانون، قبل أن ينتقل إلى السوسيولوجيا ليصبح التلميذ المباشر للسوسيولوجي الألماني المشهور ألفيرد فيبر Alfred Weber، دون أن ينقطع عن دراسة التلموذ عند الربانيب ربنكوف Rabinkow.

حصل فروم على الدكتوراه في الفلسفة، ثم تفرغ للتحليل النفسي على يد المحللة النفسية الألمانية المعروفة فريدا رايخمان Frieda Reichmann، وبعدها على يد فيلهيلم فيتينبيرغ Wilhelm Wittenberg بمدينة ميونيخ.

تزوج سنة 1929 بأستاذته رايخمان، وخرج في نفس السنة من الدين اليهودي لاعتبارات شخصية.

كان فروم من بين مؤسسي المعهد الألماني الجنوبي للتحليل النفسي الذي رأى النور سنة 1929 بمدينة فرانكفورت، ليلتحق سنة 1930 بما سمي بعد ذلك بمدرسة فرانكفورت.

سنة بعد ذلك، أي سنة 1931، أصيب بمرض رئوي، وانفصل عن زوجته، لكي يستقر بمدينة دوفوس Davos السويسرية قصد العلاج إلى حدود سنة 1934، وهي السنة التي ربطته فيها علاقة غرامية بالمحللة النفسية كرين هورنيي Karen Horney.

اضطر فروم إلى مغادرة ألمانيا بعد وصول النازية للحكم فيها سنة 1933، وهي السنة التي قام فيها بإعادة النظر في نظرية الغرائز الفرويدية ليعوضها بنظرية العلاقة النمطية Bezogenheitstheorie(1).

وقد لاقى هذا اعتراض لوفينطال Loewenthal، هوركهايمر

Horkheimer، مركوز Marcuse، وأدورنو Adorno، لينتهي المطاف بعزل فروم من مدرسة فرانكفورت سنة 1929، على الرغم من التزام العمل مدى الحياة الذي كان قد وقعه مع هذه المدرسة.

حصل على الجنسية الأمريكية سنة 1940، واشتغل هنالك كمحلل نفسي وأستاذ محاضر في كليات مختلفة ومنها على الخصوص المدرسة الجديدة للبحث الإجتماعي New School for Social Research.

تزوج فروم، بضعة أشهر بعد فراقة من كارين هورني، للمرة الثالثة بالأمريكية هيني كورلاند Henny Gurland صيف 1944.

في سنة 1950 اضطر فروم للرحيل والاستقرار بمدينة المكسيك نظرا لمرض زوجته، لكنه كان يعود بانتظام إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليلقي محاضراته، على الرغم من التزاماته المختلفة بالتدريس في معاهد مكسيكية.

سنة ونصف بعد وفاة زوجته هيني كورلاند سنة 1952، تزوج فروم للمرة الرابعة والأخيرة بأمريكية ثانية: أنيس فريمان Annis Freeman.

التزم فروم سياسيا بشكل مكثف في صفوف الحزب الاشتراكي الأمريكي منذ سنة 1960، وشارك عام 1962 في مؤتمر السلام المشهور بموسكو.

وعلى الرغم من مقامه الطويل في و.م.أ، ونشره للكثير من الكتب، ونشاطه في الحقل السياسي، فإن فروم لم يعرف تلك الشهرة النادرة التي عرف بها هنالك إلا سنة 1965، عندما التزم ضد حرب الفيتنام.

بعد أول وعكة قلبية أصابته في نهاية 1966، رجع فروم

للتشافي بمدينة لوكارنو Lucarno السويسرية سنة 1969، لينشر سنة 1976 أهم وآخر كتاب له: **الإمتلاك أو الوجود** « Haben oder Sein»، وابتداء من سنة1977 سيصبح فروم أهم وجه لحركة البدائل في كل من إيطاليا وألمانيا.

توفي فروم على إثر وعكة قلبية في سويسرا، ودفن بمدينة بلينتونا Bellinzona.

2. الفلسفة الإنسانية الفرومية

سنحاول أن نركز حديثنا في هذه النقطة على خمسة محاور أساسية، دون ادعاء أننا قد أحطنا بكل جوانب الموضوع، الذي يتطلب في العمق مجلدات كاملة، لأننا نلمس في الواقع جوهر الفرومية ذاتها.

أ. سلوك الإنسان:

على العكس من فرويد الذي يفسر سلوك الإنسان بنظرية الغرائز المشهورة، فإن فروم يؤكد أن هذا السلوك محكوم قبل كل شئ بضروريات الإقتصاد والحياة المجتمعية: لقد فتح لي فرويد عالم اللاوعي. . . وإلى جانبه كان هناك محللون نفسيون آخرون جد مهمين بالنسبة لي، سندور فرينتسي ورجل آخر كان قريبا منه، لكنه كان شخصية مغايرة له تماما، يعني جيورغ غروديكب(2).

إن المجتمع لا يؤثر في سلوك الفرد فقط، لكنه يطبع ويحدد نفسه كذلك. وخير دليل على ذلك، حسب فروم، هو ما يسمى بالنجاح المجتمعي، الذي لا يسمح للإنسان أن يعيش حواسه

الداخلية العميقة طبيعيا، بل لا يسمح إلا بما هو إيجابي فيها، وكأن الجوانب السلبية لا تنتمي إلى الطبيعة الإنسانية كما هي. وهكذا فلا يحق للإنسان الذي يريد أن يظهر بمظهر الناجح أن يظهر ضعفه أو أخطاءه أو مشاكله أو حزنه، بل لابد أن يكون إيجابيا على الدوام. وعلى الناجح -أو الذي يريد أن يظهر هكذا- ألا يخفي هذه المعاشات السلبية على الآخرين فقط، بل من اللازم عليه ألا يشعر بها هو نفسه. أكثر من هذا، على الناجح ألا يرافق إلا الناجحين، وأن يتجنب الضعفاء وغير الناجحين.

وقد لخصص المحلل النفسي الألماني راينر فون Rainer(3) Funk، آخر تلامذة ومساعدي فروم، دراسات هذا الأخير في هذا الموضوع في كون فكرة النجاح المجتمعي ليست فكرة مؤقتة أملتها ضروريات الحياة العصرية، بل إنها ظاهرة مجتمعية قائمة بذاتها، ومبدأ مؤسس يتمظهر على مستويات خمسة وهي على التوالي:

* التسويق Marketing كمبدأ مؤسس جديد.
* تفضيل مبدأ الإمتلاك على حساب مبدأ الوجود.
* تفضيل الواقع المصنع عن الواقع الفعلي.
* الخيالات النرجسية الجماعية الكبيرة واحتقار الضعفاء.
* إغراءات الجماد والأشياء.

إن المجتمع إذن هو الذي يحدد سلوك الفرد ويتحكم، بل وينتج غرائزه ويوجهها ويقودها ويختار ما يناسبه منها طبقا لضروريات الحاجيات الاقتصادية المتحكمة في هذا المجتمع. فهذا الأخير هو الذي يصنع، بميكانيزماته الخاصة، ومن بينها على الخصوص ما سماه فروم اللاوعي المجتمعي، سلوك الفرد في المجتمع.

وإذا كان الأنا الأعلى الفرويدي مكونا من القيم والمثل التي

تسود مجتمعا ما، فإن هذه القيم وهذه المثل، في نظره، محكومة بطبيعة نمط الإقتصاد السائد في هذا المجتمع.

ب. الإلتزام بالماركسية الحقة دون إغفال الجانب الروحي في الإنسان:

المقصود بالماركسية الحقة هنا هو ما عبر عنه فروم نفسه بقوله: سيبقى ماركس أهم مصدر لفكري ولإلهامي. لكن من الصعب اليوم الحديث عن ماركس، لأنه ليس هناك مفكر آخر أسيء فهمه أكثر من ماركس، وخاصة من طرف الذين يسمون أنفسهم ماركسيين، يعني أغلبية الشيوعيين. ما يعجبني في ماركس هو فلسفته ورؤيته للاشتراكية، التي تعبر في شكلها الدنيوي عن فكرة تحقيق الذات الإنسانية... ب(4).

وعلى الرغم من التأثير الكبير الذي مارسه التفكير الماركسي على فروم، وعلى الرغم من أن ماركس قد نعت الدين بأفيون الشعوب، وحشر الإيمان والإعتقاد في خانة الخرافات، فإن فروم قد أفرد أهمية خاصة لدراسة الجانب الروحي في الإنسان، وأكد على ضرورة فتح عالم الروحانيات على مصراعيه، لأنه العالم الوحيد الذي يعكس الطبيعة الإنسانية كما هي، على اعتبار أن هذا العالم يخول للإنسان أن يكون إنسانا بنجاحاته وإحباطاته، بسعادته وتعاسته، بخوفه وشجاعته إلخ. وقد خصص فروم كتبا مختلفة لهذا الموضوع، إلا أن أهم مؤلفاته في هذا المضمار هو كتابه: التحليل النفسي والأخلاق «Psychoanalyse und Ethik 1947». يقول: إن الإنسان الذي يحاول أن يعيش دون اعتقاد (إيمان) يصبح عقيما، دون أمل وخائفا في عمق وجوده(5).

لا يربط فروم الإعتقاد أو الإيمان الروحي بدين معين ولا بفكرة إله محدد، بقدر ما يعتبره -الإيمان- خاصية إنسانية جد مهمة، يمكن أن تتمظهر في أشكال أخرى، حيث نجد انفتاح الإنسان على عوالم أخرى.

ولا تفترض المعتقدات الروحية للإنسان بالضرورة فكرة المقدس أو الذات المطلقة أو المحرك الذي لا يتحرك، وما إلى ذلك من مسميات ميتافيزيقية، بقدر ما تتطلب معاشا نفسيا وتجربة شخصية، يعيش فيها الإنسان كل مرة تجربة روحية فريدة من نوعها، يشعر فيها بإنسانيته مكتملة. وقد تتمظهر هذه التجربة بطريقة التسامي Sublimation في أعمال إبداعية كفن الرسم أو الموسيقى أو الكتابة، أو حتى في أعمال اجتماعية خيرية كالإهتمام بالمهمشين في مجتمع ما.

ويميز فروم في الاعتقاد بين الاعتقاد اللاعقلي والاعتقاد العقلي. ويمكن تلخيص النوع الأول في العبارة اللاتينية: (Je crois est car c'est absurde, Credo quia absurdum)، وهو إيمان قريب من السادية، لأن موضوع الإيمان يكون مؤسسا على الخضوع الأعمى اللاواعي واللاعقلاني لشخص أو لشيء.

أما النوع الثاني من الاعتقاد فله علاقة بالإقتناع العقلي والنفسي بمضمون موضوع الإيمان، الذي لا يكون مؤسسا على الخضوع والخوف اللاواعيين، بل على الثقة المنطقية في كفاءة الشخص أو الشيء موضوع الإيمان. فالشهادة في الإسلام مثلا: أشهد أن لا إلاه إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله يجب أن تعني للشاهد الثقة المنطقية الكاملة، بعد التأمل العميق للكون، على أنه لا يمكن أن يكون هناك إلا إلاه واحد ووحيد لهذا الكون.

أما الشطر الثاني من الشهادة فيعني الثقة بالحدث التاريخي للرسول محمد، وبكفاءته على حمل وتبليغ الرسالة التي وكلت له. وإذا لم يتوصل الإنسان المسلم إلى الاقتناع النفسي والعقلي بهذا، فإن إيمانه سوف يكون إيمانا لا عقليا فقط، وهو أحط درجات الإيمان، بل قد يقود إلى ضده.

ونختم هذه النقطة بما قاله فروم: لكي يعيش، يحتاج الإنسان للإعتقاد. ومن أجل العيش في العالم المعاصر والمستقبل الذي يتطور فيه، فإن كل إنسان سيكون في حاجة للإيمان العقلي. ويمكن للإيمان العقلي الضروري أن يتطور في النظام المجتمعي، حيث تتحقق المثل الديمقراطية أكثر فأكثر(6).

ج. نقد المجتمع الاستهلاكي الرأسمالي وتقديم مبدأ الوجود بديلا عن مبدأ الإمتلاك:

انتبه فروم من بين ما انتبه إليه في فلسفته الإنسانية إلى استلاب(7) الإنسان في المجتمع الاستهلاكي الرأسمالي. وهو استلاب تم على مستويات عدة، وعلى رأسها استلاب وعي الإنسان، والزج به في عوالم استهلاكية خيالية، لا يكون مطالباً فيها باستعمال ذكائه وخياله وعبقريته وعقله، بقدر ما يكون مرغما على الاستهلاك الأعمى. ومن الميكانيزمات النفسية التي توظف من أجل تحقيق هذا الغرض هناك على الخصوص تقييد الإنسان بأصفاد غير مرئية تبيع له القيد معلبا في علبة الحرية، بمبادئ من قبيل الفردية والحرية الشخصية إلخ.

وهناك ميكانيزمات عديدة ومعقدة تساهم في هذا الإستلاب، مخططة في مخابر الشركات العظمى المستفيدة الأولى والأخيرة من تكثيف استهلاك ما ينتج في الدول المصنعة.

ما ينتقده فروم في الإستهلاك غير الواعي هو أنه يقود حتما إلى

السقوط في فخ مبدأ الإمتلاك، الذي يقلص الحياة الإنسانية في الأشياء والمواد التي تقدم له، ليصبح الإنسان نفسه بضاعة تباع وتشترى، تماما كباقي البضائع الأخرى. وهو أمر نعيشه حاليا ونجده في كل الأقطار، لأن الحب مثلا تحول إلى جنس، وإشباع الشهوات الغريزية وأفرغ من كل مضمونه الإنساني، سواء أمورس هذا الإفراغ من طرف شبكات الدعارة العالمية أو من طرف شركات أفلام الفيديو ومواقع الإنترنيت.

إن تقوية مبدأ الوجود لا يعني في نظر فروم القضاء النهائي على مبدأ الإمتلاك، بقدر ما يعني إيجاد التوازن بين المبدأين من أجل حياة متوازنة.

يمكن تنمية مبدأ الوجود عن طريق عقلنة الإستهلاك الفردي، باقتناء الضروري والإستغناء عن الثانويات مثلا، أو بعدم الخضوع لإغراءات العوالم المصنعة (ماكدونالد، عالم الديزني إلخ). ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا إذا وعى المرء بأن إغراءات السوق تتأسس قبل كل شيء على سذاجة المستهلك وليس على ذكاء مهندسي هذه السوق.

د. الإلتزام السياسي في المجتمع كواجب إنساني للمفكر.

قال فروم مرة: أنا اشتراكي ديمقراطي، إلا أن لهذا الجواب اليوم معان كثيرة، بحيث لا تكفي للدلالة على نقطة معينة. إن توجهي السياسي هو توجه اشتراكي إنساني، ما يهمني هو مجتمع يكون فيه هدف التنظيم الإجتماعي هو التطور الأقصى للفرد وحريته(8). وهذا ليس غريبا، لأن فروم مفكر يتطابق فكره وسلوكه بطريقة فريدة من نوعها، ذلك أنه قال: لم أمتلك أبدا إلى يومنا هذا القدرة على التفكير في الأشياء التي لا يمكن أن أعيشها:

إن التفكير المجرد صعب علي. لا يمكن أن أفكر إلا في الأشياء التي لها علاقة بأشياء أخرى، وما يمكنني في نفس الوقت أن أعرفه بالفعل9.

والإلتزام السياسي في المجتمع يعني أخذ موقف مما يروج في هذا المجتمع، ليس بالنقد الهدام، بل بالنقد البناء. ذلك أن النقد الهدام يقود إلى الباب المسدود، وينتهي إما إلى اللامبالاة تجاه القضايا الحساسة في المجتمع الماكروسكوبي والميكروسكوبي، وإما إلى الثورة العنيفة، ولربما الحروب الجماعية. أما النقد البناء، فإنه يفتح أفق التغيير والإعتراف المبدئي المتبادل بالرأي الآخر، من أجل إيجاد أساس حوار وتفاهم قصد خدمة المصلحة العامة، التي تعود بالنفع على كل فرد في المجتمع.

لا يمكن للمفكر إذن، على ضوء ما سبق، أن يعيش في أبراجه وينظر للمجتمع المثالي، بل عليه أن ينغمس في هذا المجتمع لكي يحلله من الداخل.

ويمكن للإلتزام السياسي أن يأخذ صورة ممارسة فعلية في الحياة العامة، في إطار تنظيمات سياسية أو نقابية أو حقوقية، أي في إطار جمعيات المجتمع المدني المختلفة.

هـ. رفض كل أشكال الهيمنة الإمبريالية المعاصرة بما في ذلك الصهيونية.

قد لا يفاجئ هذا المحور على اعتبار أن كل فلسفة إنسانية لا تقبل هيمنة القوي على الضعيف واستغلاله من أجل السيطرة عليه وعبوديته، بما أن الهدف المثالي الأسمى هو تحرير الإنسان، أي إنسان، من كل العبوديات.

والدافع الأساسي لمقاومة فروم للإمبريالية بكل أصنافها، هو كون هذه الأخيرة تخدم أساسا فئة معينة على حساب فئات

أخرى، وتعزز مبدأ الإمتلاك على حساب مبدأ الوجود، سواء في مجتمعات الدول المهيمنة أو الدول المهيمن عليها. والأخطر من هذا هو كون الحرب المعاصرة تدار دون أية أخلاقيات ولا قواعد، بل دون إحساس بالذنب حتى في حق من يقتل دون حق، لأن تكنلوجيا الحرب تسمح بالقتل عن بعد دون رؤية ساحة الحرب.

ولعل مواقف فروم من الحربين العالميتين، ونقده اللاذع لغزو أمريكا لفيتنام، وتحذيره من خطر حرب نووية زمن الحرب الباردة، قد تكون مسائل بديهية، لكن موقفه من الصهيونية، وانتقاده لممارساتها تجاه الفلسطينيين قد تظهر غريبة، وهو اليهودي الأصل. لكن هذا يعبر عن عمق فروم المفكر، الذي كان يرفض كل هيمنة للإنسان على الإنسان.

كانت هذه إشارات جد عامة حول النزعة الإنسانية الفرومية، التي سوف ندققها ونوسعها ونكملها بعد إنهائنا لمشروع ترجمتنا إلى العربية لبعض من نصوصه المهمة. وككل فكر، يطرح سؤال أهمية فروم بالنسبة للقرن الواحد والعشرين. وبهذا نكون قد وصلنا إلى النقطة الأخيرة لعرضنا هذا.

3. أهمية فكر فروم للقرن الواحد والعشرين

قد يبدو هذا الطرح براغماتيا، وهو كذلك إلى حدود ما، لكن لا يخفي، كما قد يوحي بذلك المضمون الضمني للأطروحة، هدف اهتمامنا بفكر فروم.

ما حرك فروم هو توقه للفعل في المجتمع من أجل تغييره نحو الأحسن عن طريق تحرير أفراده من كل القيود التي تحول دونهم والوصول إلى إنسانية أكثر إنسانية.

أ. قراءة متأنية لأحداث مطلع القرن العشرين على ضوء الفلسفة الفرومية.

هناك حدثان مهمان طبعا مطلع القرن الحالي، أولهما أحداث 11 شتنبر 2001، وثانيهما تطبيق العملة الموحدة في أوروبا المتحدة، وكلاهما يعبران عن تغيير جوهري لوجه العالم سياسيا واقتصاديا.

- لقد كانت أحداث 11 شتنبر 2001 المأساوية، والتي لا يمكن أن تقبل لا إنسانيا ولا حضاريا مهما كان المبرر وكيفما كان الفاعل، أعسر امتحان أصاب الرأسمالية في أعنف أشكالها وتطوراتها، يعني الليبرالية. وحتى اختيار أهداف الضرب لم يكن صدفويا ولا اعتباطيا، مادام الأمر قد تعلق بضرب رموز لها دلالاتها السيمو-نفسية وأهميتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية. والملاحظ، وعلى الرغم مما قيل عن عداوة الضاربين للحرية والديمقراطية إلخ، هو أن تمثال الحرية لم يضرب. وعوض محاولة فهم خطاب هذه اللغة العنيفة، استقر رأي الرأسمالية الأمريكية على تحالف من أجل الإقتصاص من عدو لم يثبت أنه هو الفاعل الفعلي، عوض العمل على بتر جذور الأسباب الحقيقة التي أدت إلى اللجوء إلى استعمال هذه اللغة دون غيرها. هذه الأسباب التي يمكن لمسها في الليبرالية في حد ذاتها، وفي آخر صيحة لها العولمة، التي لا تعني شيئا آخر في نظرنا، سوى تركيز خيرات العالم في يد حفنة من المقاولات الكبرى، لكي تحكم السيطرة على الكون. ذلك أن مبدأ الإمتلاك الذي يعتبر جوهر الرأسمالية، لم يعد يقتصر على الكوكب الأرضي، بل تعداه ليشمل الكون المعروف إلى حد الساعة.

لكن ما لم يكن في حسبان مصممي الرأسمالية الليبرالية الحالية هي كون الضغط والسيطرة على الآخر، قد تدفع بهذا الأخير إلى توظيف العبقرية الإنسانية، التي لا يمكن أن تخضع لأي رقيب من غير الضمير الإنساني ذاته، توظيفا سلبيا.

فيمكن ضبط وتكميم وترقيم والتنبؤ ومراقبة أشياء كثيرة الا عبقرية الإنسان، وخاصة الإنسان المقهورالثالثي، وبالأخص عندما لا يأخذ محل الجد أو يستهان بقدراته على المقاومة. وتاريخ الجنس البشري حافل بالأمثلة على ذلك. والعبرة التي استخلصتها شخصيا من هذا الحدث الأليم هو كون مبدأ الإمتلاك لا يمكن أبدا أن يطمر مبدأ الوجود، إذا كان هذا الأخير يعني من بين ما يعنيه هذه القدرة على الخلق والإبداع الإنسانيين. ليس هناك في العالم المعاصر تقابل قطب شرير وآخر خير، بقدر ما هناك احتدام الصراع بين مبدأ الإمتلاك ومبدأ الوجود.

ب. توظيف الروحي لسلب الإنسان.

إذا استحضرنا إلى أذهاننا أهمية، ولربما ضرورة الجانب الروحي للإنسان في نظر فروم، فإنه سيكون من السهل تصور ميكانيزمات استغلال هذا الروحي من طرف استراتيجيات السوق من أجلب استلاب الإنسان. قد نبالغ إذا قلنا إن للروحي سوقه الخاصة وديناميكياته الخاصة من أجل تطبيق مبادئ السوق في الميدان الروحي. فكلمة السر التي أنتجها مبدأ الإمتلاك هي كلمة التسويق Marketing، ومفاد ذلك هو أن كل شيء كيفما كان، قابل للتسويق والترويج والبيع، شريطة خلق سوق وإيجاد تقليعة توهم بأن هذا الشيء ضروري من ضروريات الحياة: صحون مقعرة،

هواتف نقالة إلخ. فهل تحسنت مثلا ثقافة الإتصال بفرض الهاتف النقال أم تضخم حجمها وأصبحت كثيفة ولم يعد من الممكن حل كل خطاباتها، وبالتالي أصبحت قشورية فقط؟

فن مخادعة مبدأ الإمتلاك في تطبيقه استراتيجية التسويق هو خلق السوق من عدم، وترويج سلعة معينة فيها بإتقان.

نلاحظ في عالم اليوم استغلال الروحي من أجل تقوية مبدأ الإمتلاك، على الرغم من أن هذا الروحي ينتمي طبيعيا إلى عالم مبدأ الوجود. وهذا الإستغلال أدى بالعالم الروحي، في كل المجتمعات والحضارات المعاصرة، إلى انزلاق سيميائي خطير، مفاده أن مضمون هذا الروحي لم يعد كما كان في السابق مركزا على الطهارة الروحية الداخلية والتنفيس الروحي للإنسان، بل أصبح كما يمكن أن يقول أ. سبيلا، أداة أيديلوجية لخدمة مصلحة دنيوية.

وشعارات من قبيل محاربة الشر أو الشيطان في العالم هي شعارات جد ضبابية، تعني قبل كل شيء توظيف المقدس لإحكام السيطرة على عالم الأشياء الفانية. وهو توظيف مرفوض إنسانيا وحضاريا، لأنه يؤدي بالضرورة إلى صدام الحضارات، كما نظر إلى ذلك صمويل هونتنغتون، وهو صدام مفتعل ومرغوب فيه ومخطط له من أجل إقصاء كل الحضارات الأخرى، لكي نصل في الأخير إلى المثل الأعلى لمبدأ الإمتلاك، ألا وهو نهاية التاريخ الفوكويامي، أي نهاية الإنسان، إذا ما استحضرنا إلى أذهاننا مرة أخرى واقعة كون مبدأ الإمتلاك يقود حتما إلى الملل والقرف، وبالتالي إلى إشعال فتيل الطاقة الهدامة في الإنسان على شكل حروب.

فكلما قوينا مبدأ الإمتلاك على حساب مبدأ الوجود، كلما

عشنا الحروب والويلات في هذا العالم، الذي لم يعرف في تاريخه الطويل فترة أعنف مما نعيشه حاليا.

و لعل السؤال المطروح هو: ما العمل؟ كيف يمكن أن نخرج من هذه الدوامة التي نوجد فيها، وهذه الحلقة المغلقة التي أقحمنا فيها في تاريخنا البشري؟

ج. البديل أو البدائل.

على الرغم من هذه اللوحة الدامسة التي رسمناها لواقعنا في هذا العالم، الناتجة عن تكثيف وتعنيف مبدأ الإمتلاك، فإننا قد أكدنا في أكثر من موضع على أن مبدأ الوجود القابع فينا لن يموت ولن ينتهي، لأنه ينتمي في الأصل إلى طبيعتنا الإنسانية. ومن أجل إزالة أي التباس، لابد من التأكيد بأن فروم لم يكن يعني بمبدأ الإمتلاك القطب الشرير فينا، وبمبدأ الوجود القطب الخير فينا، بل إن القطبين معا، في نظره، ينتميان للطبيعة الإنسانية، وفن الحياة الذي نادى به، هو المحافظة على توازن مقبول بين المبدأين.

هناك بدائل كثيرة في العالم المصنع كالبديل الأيكولوجي، وحركات مناهضة العولمة، وموجات التجارة العادلة، تعمل من أجل العدالة في العالم، لكنها حركات لم تتقو بما فيه الكفاية من أجل فرض نفسها، بل إن الكثير من هذه الحركات تسقط دون قصد في فخ منطق السوق، لتصبح إما أداة طيعة لخدمة هذه الأخيرة، أو فريسة سهلة لها تبتلعها متى تشاء.

وما يقرب هذه البدائل من الفرومية ليس فقط توقها للمزيد من العدالة الإجتماعية وتوزيع ثروة العالم بالتساوي، بل وأيضا نزعتها الإنسانية. فالإنسان، وليس البضاعة أو السوق، هو المحور المركزي لاهتمامات هذه النزعات الإنسانية.

ولا غرابة إذا لاحظنا، بعد ربع قرن تقريبا من موت فروم، هذا الإهتمام الكبير بفكره في مجموع العالم المصنع، لأنه يقدم في العمق بديلا من البدائل الممكنة والمرغوب فيها من أجل إعادة الإعتبار للإنسان كإنسان أينما وجد هذا الإنسان، وحيثما هب ودب.

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، فإن فروم يطالب بالتغيير على المستوى الفردي من أجل تغيير المجتمع. وهذا يعني قبل شيء مسؤولية كل فرد منا تجاه ما يروج في العالم الكبير والعالم الصغير لكل واحد منا.

وهي مسؤولية لا تفترض فقط حرية الفرد، بل وأيضا وعيه ورغبته من أجل العمل على تحقيق هذا المشروع الإنساني العظيم، المتمثل في تحرير الإنسان من كل القيود التي تسمح له بتطور آخر غير التطور التقني الإمتلاكي. هذا الوعي وهذه الرغبة يتطلبان من بين ما يتطلبانه طلق العنان للعبقرية الإنسانية من أجل إيجاد حلول مقبولة من طرف البشرية جمعاء للمشاكل الشائكة والمعقدة التي أفرزها التطبيق المكثف لمبدأ الإمتلاك على حساب مبدأ الوجود.

ويقودنا هذا الحديث إلى النقطة الأخيرة في عرضنا هذا والمتمثلة في مثال من الأمثلة التي يمكن للمرء تصورها عن تقوية مبدأ الوجود في عالم اليوم.

د. إنجاح مشروع الحوار والتعايش بين الديانات والثقافات المختلفة في العالم.

سبقت الإشارة إلى أطروحة نهاية التاريخ لفرانسيس فوكوياما، التي تبعت بأطروحة صراع-صدام الحضارات

لهنتنغتون، وتبرير الحرب العادلة من طرف ميخائيل فالتزر، وكلها أطروحات ونظريات تدور وتتصارع في فلك مبدأ الإمتلاك، وتصبو إلى مشروع القضاء النهائي على إنسانية الإنسان، الذي يريد مبدأ الإمتلاك هذا، إن عن وعي أو دون وعي، تحقيقها كتتويج أسمى لسيطرته، لكي ينتهي التاريخ البشري بالفعل. وهي أطروحات ليست خطيرة على الإنسانية كإنسانية فحسب، بل وكذلك على الكون المعروف عندنا حاليا.

المطلوب حاليا هو قبل كل شيء وعي هذا الفخ المحكم الذي سقط فيه عالم اليوم في أتون الإستهلاك والشهوات المادية غير المعقلنة، ومحاولة تجاوز ضغط هذه الأيدي الخفية التي تدفعنا على الدوام للمزيد من الإستهلاك غير الواعي، وتصور لنا التبضع (أو التضبع) واقتناء المستهلكات كمعاشات حقيقية في حد ذاتها في كنائس وجوامع ومعابد مبدأ الإمتلاك، المتمثلة في سلاسل المراكز التجارية المغرية. فالمركز التجاري في الغرب المصنع، وكذا في الكثير من الدول الأخرى، أصبح بمثابة معبد إلاه الإمتلاك، حيث تقدم القرابين من أجل أخذ بركة الولي الصالح معنا إلى البيت. فالركن المخصص اليوم في البيت لجهاز التلفزة أو للحاسوب أو لأي آلة تيقنولوجية أخرى، أخذ المكان الذي كان في السابق مخصصا للرموز الروحية في الكثير من الثقافات والحضارات.

من بين ما نحن مطالبون به اليوم هو تقوية أسس الحوار والتعايش السلميين بين المعتقدات والحضارات والثقافات من أجل دعم حركات السلام في العالم بهدف الوصول إلى إنسانية أكثر إنسانية. يقول فروم: لقد كنت دائما نشيطا في حركة السلام،

على الصعيد العالمي وعلى الصعيد الأمريكي وإنني أعتقد وآمل، مادامت هناك حياة، بأن ذلك الرصيد القابع في الإنسان سينفجر وسيعبر عن نفسه من جديد. وهذا الإعتقاد موقوف على مدى شعور وعيش كل واحد منا بهذا الأمل وتمريره بطريقة أو بأخرى للآخرين ب10.

بعرضي هذا حاولت من جهتي أن أفتح لكم باب هذا الأمل الفرومي في إنسانية تستحق هذا الإسم. وقد عاش فروم ومات على هذا الأمل، وحتى وإن لم يخلف ذرية بيولوجية، فإنه قد خلف ذرية فكرية حملت المشعل من بعده من أجل تقوية مبدأ الوجود على حساب مبدأ الإمتلاك. وهي ذرية منظمة في إطار الجمعية العالمية لإريك فروم، التي تظم أكثر من 5000 منخرط نشيط في كل بلاد العالم، زيادة على ملايين القراء الشغوفين بدراسة وقراءة مؤلفات فروم الكثيرة، التي جمعت مؤخرا في 12 مجلدا، ولعل أهم كتاب لفروم هو : **الإمتلاك أو الوجود**، الذي تفضل د. سبيلا بترجمة قسط منه إلى العربية، والذي نشر في العدد2 من مجلة **فكر ونقد**.

مدخل إلى فكر وأعمال إريك فروم

د. راينر فونك[11]

من الصعب بكثير تلخيص أعمال إريك فروم في تقديم مختصر كهذا. فقد تجاوزت الأعمال الكاملة له 6000 صفحة مجموعة في 12 جزء باللغة الألمانية. وقد كانت له معرفة واسعة في السيكولوجيا والسوسيولوجيا والفلسفة والسياسة والتاريخ والدين والبيولوجيا وعلم السلوك المقارن إلخ. وإذا أراد المرء تلخيص فكر فروم، فلابد من الرجوع إلى كل الميادين التي شغلته وأنتج فيها.

ولا يعتبر تلخيص من هذا النوع غير ممكن فقط، لكنه غير ضروري كذلك. فكل من يهتم بفروم سيلاحظ بأنه ينطلق من علم معين. وسنركز فيما سيأتي على هذا المنطلق بالذات، لأنه المنطلق الوحيد الذي سيمكننا من فهم أسباب اهتمام فروم بالتحليل النفسي والماركسية ولماذا لم يقتصر على مهنته كمعالج نفسي بل اهتم بالسياسة ولماذا لم يقتصر على دراسة الفرد وحده بل اهتم بالمجتمع وبالإنسانية عامة وبالإنسان الثالثي ولماذا انتقد بحدة الديانات المؤسساتية في الوقت الذي كان فيه هو نفسه إنسانا متدينا بطريقته الخاصة.

إن خلفية المنطلق العلمي الشخصي لإريك فروم لا يختلف كثيرا عن منطلق الكثير من المفكرين في العالم العربي : كطفل في عائلة يهودية أرثودكسية عاش فروم بين التقليد والحداثة وحاول تحديد هويته الإجتماعية في بداية الأمر طبقا للتقليد الديني على حساب الحداثة. وعلى الرغم من أنه خرج من الدين اليهودي في ربيعه السادس والعشرين واهتم بالفكر العلمي التنويري للحداثة، فإن السؤال الذي لازمه هو كيف يُحدد فكر وعواطف وسلوك الفرد اجتماعيا. وقد أدى به هذا السؤال إلى مسار علمي جد غني.

الجذور الدينية والروحية لفكر فروم

لقد كان معلمو فروم وأفراد عائلته ينتمون إلى الأرتودوكسية اليهودية قولا وعملا. ولم ينتج الجانب التقليدي لهذا النمط في الحياة من خلفية تقليدية سلطوية، بل كان تعبيرا عن الإصلاح اليهودي الليبرالي الذي كان يريد الإندماج في المجتمع الرأسمالي والتضحية بنمط حياة متأثر بما ورث عن اليهودية منذ قرون.

ويتأسس هذا النمط المعيشي على الهوية الخاصة، التي لا تنصهر في الوسط الذي تعيش فيه وفيما يعتبر عاديا، لكنها ترسم حدودا بينها وبين الأغلبية في المجتمع، التي تنتج ما يسميه المرء الإدراك الإنساني المعافي لروح العصر. فالإنصهار في المعطى المجتمعي لا يضمن المعاش الشخصي والهوية، لكن ما يضمن ذلك هو نمط عيش يُعبر فيه بوضوح عن السلوك الموروث عن الدين.

وبما أن نفس التقليد الديني هو الذي يؤسس كل ميادين الحياة

انطلاقا من الفكر والإحساس والسلوك وكل العلاقات التي تجمع الفرد بمحيطه الإنساني والطبيعي على المستوى الإقتصادي والإجتماعي والثقافي والسياسي، فإن كل منافسة لأنواع أخرى من الإيتوس عند نفس الشخص والمعتنقين لنفس الديانة تكون غائبة.

وتمنح المشاركة في بناء نمط حياة مشترك قوامه التقليد الديني أحسن سلاح للفرد وللجماعة التي يعيش فيها من أجل عيش هويته الذاتية. ولهذا السبب لابد من رفض أنماط الحياة التي تقترحها الليبرالية ومجتمع التنافس. وهكذا فإن الأورتودوكسية اليهودية التي تربى فيها فروم كانت تتميز بدفاعها عن فكرة المحافظة على الهوية الأصلية بالمحافظة على وحدة الدين والإحتراس من عدم الإختلاط بأنماط أخرى من الحياة المجتمعية.

وقد درس فروم علميا في أطروحته، وهو في عمر 22 سنة، تحت رئاسة السوسيولوجي ألفريد فيبر منطق التجربة الدينية. فقد درس في ثلاث لحظات تاريخية في الهجرة اليهودية دور القانون اليهودي، يعني الثورات المعاشة، في تضامن الأقليات اليهودية. وتتمظهر الهجرة اليهودية كعظمة سوسيولوجية في كون اليهود، وعلى الرغم من فقدان الأرض واللغة الدنيوية الخاصة بهم وفي غياب أية مؤسسة دينية بعينها، قد استطاعوا الإستمرار في الحياة كمجموعة موحدة في الدم والقدر. وما مكن اليهود من ذلك هو القانون اليهودي. وبهذا تمكنت اليهودية المهاجرة العيش وسط شعوب أخرى في عالمها الخاص في عالم غريب عنها.

والملاحظ هو أن المرء يجد الإهتمام الإجتماعي النفسي لفروم في أطروحته على الرغم من أنه لم يكن في ذلك الوقت يتوفر على

أداة تحليل نفسية تمكنه من فهم وظيفة التضامن اليهودي عن طريق اللاوعي. وقد وعى فروم في أطروحته بأنه مهما كان تنظيم نمط عيش مجموعة بشرية ما -والمقصود هنا طريقة الإنتاج، تنظيم العمل، أشكال العلاقات الإجتماعية في الثقافات، والممارسات السياسية والأخلاقية والدينية إلخ- وحتى في حالة تغيير هذه الظروف، فإن أشكال الإيتوس الموروثة تلعب دور المحافظ على التحام هذه المجموعة. ولم ير فروم أشكال الإيتوس هذه كبُنيات سيكولوجية ذات قوة ديناميكية خاصة بها إلا بمساعدة التحليل النفسي الفرويدي. لكنه استطاع وهو في 22 سنة من عمره التعرف على التأثير المتبادل بين نمط عيش ما وأشكال الإيتوس.

الإهتمام الإجتماعي النفسي لفروم

بدأ المنعطف المهم في تطور فروم، الذي انتزعه من الأورثوذوكسية اليهودية وقاده إلى التحليل النفسي، بالتقائه مع فريدا رايخمان (1889-1957) التي أصبحت فيما بعد زوجته. وهي التي عرفت فروم بالتحليل النفسي الفرويدي وشجعته على دراسة هذا التخصص الجديد. فقد تعرفت رايخمان على هذا الأخير في إطار تخصصها كطبيبة نفسية. وقد عبر فروم عن أهمية فرويد بالنسبة له في حوار له سنة 1980 قبل أن يتوفى: لقد فتح لي فرويد عالما جديدا، ألا وهو عالم اللاوعي. فقد علمني -كما علم ملايين الناس الآخرين- بأن ما نعيه ما هو إلا جزء جد صغير. وقد ميز بين نوعين من اللاوعي: ما يسمى بقبل الوعي -ما يمكن أن يكون وعيا، لكنه في هذه اللحظة ليس كذلك، لأنني سأصبح أحمقا إذا كان باستطاعتي التفكير في كل شيء

يدور في عقلي دفعة واحدة ودفعه إلى مستوى الوعي- واللاوعي في معنى كبت ما تحول قوة داخلية في من عدم وصوله إلى مستوى الوعي . . .

هناك الكثير من القوى التي تحدد سلوكنا لا نكون واعين بها إلا جزئيا أو لا نكون واعين بها على الإطلاق. أتدفع هذه القوى بالناس إلى التفكير والشعور والسلوك بطريقة واحدة، حتى وإن لم يكن هذا التفكير وهذا الشعور وهذا السلوك محددا من طرف مؤسسات اجتماعية؟ أهناك طاقة لاواعية تسبب أشكالا إيتوسية خاصة للهجرة اليهودية؟ وما شغل فروم بعمق منذ تعرفه على التحليل النفسي ولازمه بقوة إلى أن مات كان هو اللاوعي المجتمعي: ماذا يُلحم بطريقة لا واعية أناسا يتقاسمون نفس العيش في مجموعة اجتماعية معينة (كطبقة اجتماعية أو أمة أو جماعة عقائدية أو ثقافية أو مهنية) وما هي الدوافع أو خصائص الطبع التي تسمح بالتفكير والشعور والسلوك بنفس الطريقة؟ وقد أصبح الإهتمام السوسيولوجي لفروم منذ أن تعرف على التحليل النفسي اهتماما اجتماعيا نفسيا. فما يُلحم المجتمع والمجموعات الإجتماعية هي القوى النفسية، التي تكون في غالب الأحيان لاواعية.

ويفرض علينا هذا طرح سؤال آخر: كيف تتكون هذه الدوافع؟ أتعتبر هذه الأخيرة غريزية، كما افترض ذلك فرويد، أم أنها تظهر عندما تُستنبط -تُعاش داخليا- من جراء اضطرارات اقتصادية ومتطلبات الحياة المشتركة، بطريقة تؤدي بالناس في آخر المطاف إلى ممارسة ما يقومون به تحت ضغط ضروريات الإقتصاد والحياة المجتمعية عن طواعية وبدوافع شخصية وبنشاط ومثابرة. وعلى العكس من فرويد الذي يعتبر الدوافع غريزية، فإن فروم

يشرح الدوافع التي تدفع بالناس إلى التفكير والشعور والسلوك بنفس الطريقة بضروريات الحياة الإقتصادية والإجتماعية. وبهذا فإن الدوافع من وجهة نظره هي في المقام الأول ناتجة عن المجتمع.

لقد حاول فروم في أعماله الإجتماعية النفسية ما بين 1929 و1932 التوفيق منهجيا بين السوسيولوجيا والسيكولوجيا. يقول في نص له سنة 1929 : إن تطبيق التحليل النفسي في السوسيولوجيا لابد أن يحترس من الوقوع في خطأ تقديم أجوبة في الأماكن التي تكون فيها الوقائع الإقتصادية والتقنية والسياسية مؤهلة لتقديم أجوبة كافية للإشكاليات السوسيولوجية. من جهة أخرى لابد للمحلل النفسي أن ينبه إلى أن المجتمع كموضوع للسوسيولوجيا، يتكون في الحقيقة من أناس منفردين، وبأن سلوك وفكر وشعور هؤلاء الناس وليس المجتمع المجرد هو موضوع البحث السوسيولوجي.

من هنا، فإن فروم يتوصل فقط إلى فهم خاص للمجتمع في فكره، لكنه توصل أيضا إلى فهم خاص للفرد كفرد. فلا يمكن فهم هذا الأخير إلا إذا أخذ على محمل الجد كوجود اجتماعي والإعتراف بواقعة مفادها أن ما يحرك الناس ليست هي فقط اكراهات خارجية ودوافع بيولوجية معطاة، لكن المحددات السيكولوجية في المقام الأول، الناتجة عن تمثل الضروريات التاريخية المتغيرة للإقتصاد وللحياة المجتمعية. فالتحديد الفرومي للفرد والمجتمع لسنة 1929 يتضمن في العمق ما يميز علم الإجتماع النفسي الفرومي. من طبيعة الحال يتضح منذ هذا التاريخ أيضا، بأن فروم ابتعد عما كان معتادا عليه في السوسيولوجيا وفي التحليل النفسي شاقا طريقا جديدا في البحث.

مدرسة فرانكفورت ومساهمة فروم في الماركسية

لم يكن فروم محللا نفسيا فقط، بل درس السوسيولوجيا وجمع بينها وبين التحليل النفسي، بين ما هو فردي وما هو مجتمعي في تخصص قائم بذاته سمي بالتحليل النفسي السوسيوسيكولوجي. ولهذه الشهرة الفرومية في ميدان علم الإجتماع النفسي ارتباط وثيق بمعهد الدراسات الإجتماعية، يعني بما سمي فيما بعد مدرسة فرانكفورت، وبفكر ماركس. وبدأ الإرتباط المهني لفروم بهذا المعهد، الذي كان يضم مجموعة كبيرة من اليهود الماركسيين -غير لينينيين-، سنة 1930 واستمر إلى غاية سنة 1939. كان على فروم في إطار عمله هذا أن يبحث مدى تأثير النفس الإنسانية في الحياة الإجتماعية وبأية طريقة يتم هذا التأثير. وقد كان لفروم التزام عمل مدى الحياة بهذا المعهد، حيث تقلد مهمة مدير القسم الإجتماعي النفسي فيه (وقد عزل سنة 1939 عندما تقلد منافسه تيودور أدورنو رئاسة المعهد وأصبحت الظروف المادية للمعهد متدهورة بفعل الحرب العالمية الثانية).

وبعد انضمام فروم إلى هذا المعهد أخذ العمل فيه منعطفا جديدا لسنوات عديدة، ذلك أن الفضل كان لفروم لإدخال التحليل النفسي والبحث السوسيولوجي ذا النزعة الماركسية في الوقت نفسه. فقد استفاد فروم من العاملين الآخرين في هذا المعهد للإطلاع على النظرية الماركسية وخاصة من ماكس هوركهايمر وهيربيرت ماركوز. ولربما كان عمله بهذا المعهد أهم فرصة للتعرف بعمق على الفكر الماركسي. وتجدر الإشارة إلى أن

مفكري المعهد كانوا ينظرون إلى محاولة فروم التوفيق بين السوسيولوجيا والسيكولوجيا في أعماله نظرة ريبة وشك، على الرغم من أن ليو لوفينتال، الذي كان السبب في التحاق فروم بالمعهد، كان متيقنا من أن فروم هو أهم عقل خلاق لهذه المهمة، كما قال في حوار له سنة 1980.

ما كان ينقص الفهم الماركسي هو نظرية نفسية تصل القاعدة برأس الهرم. فقد كان واضحا بالنسبة لمفكري المعهد، بأن هناك ميكانيزمات أخرى تنضاف إلى ممارسة السلطة من أجل شرح السلوك الإمتثالي. وقد حاول فروم دراسة الحلقة التي كانت ناقصة في سلسلة الماركسية. يقول في كتابه **التحليل النفسي والسياسة**(ب) المنشور سنة 1931بأن كل شكل من الأشكال الإجتماعية ليس فقط أساسا اقتصاديا سياسيا خاصا، لكن أيضا أساسا ليبيديا قائما بذاته.

ولكي لا تبقى هذه الحلقة التي تصل القاعدة بقمة الهرم -والتي سماها في بداية الأمر بنية الدوافع الليبيدية وأصبحت فيما بعد خاصية المجتمع- افتراضا نظريا فقط، قام فروم سنة 1929 بدراسة ميدانية على بعض العمال والموظفين. وقد كانت هذه الدراسة أول دراسة اجتماعية نفسية ميدانية على وجه الإطلاق أظهرت عن طريق توظيف التحليل النفسي بأن للإلتزام السياسي والإنتماء الحزبي أسباب لاواعية مختلفة. ولهذا السبب فإن إلقاء نظرة على بنية الدوافع أو بنية الطبع هي وحدها الكفيلة بإظهار كيف يفكر إنسان ما ويشعر ويسلك. وكانت بدايات ظهور الإشتراكية الوطنية (النازية) في ألمانيا هي المحرك الذي دفع بفروم للإهتمام بهذه الإشكالية. وعلى الرغم من أن نتائج هذه الدراسة التي

شملت 600 شخص لم تنشر إلا سنة 1980 ، فإنه كان باستطاعة فروم القول عندما تقلد هيتلر زمام الأمور بألمانيا ، بأن العمال الذين تربوا في حضن الأحزاب اليسارية والنقابات العمالية ، وعلى الرغم من اختيارهم الثوري ، لم يشكلوا المقاومة ضد النظام السلطوي الديكتاتوري ، التي يعتقد المرء أنهم قاموا بها .

بنظريته حول البنية النفسية للمجتمع -الطبع الإجتماعي- قام فروم بمساهمة أساسية في إطار الحوار الماركسي ، ليس فقط في حضن معهد الدراسات الإجتماعية ، لكننا نلاحظ اليوم كذلك طفوح هذه المساهمة إلى السطح . فقد اهتم فروم بكتابات كارل ماركس في الثلاثينات من القرن الماضي عند نشر الأعمال الأولى لماركس (وقد كان فروم هو أول من نشر هذه الأعمال باللغة الإنجليزية سنة 1961) . فما اهتم به فروم عند ماركس لم يكن فقط تصوره للإشتراكية ، لكن وقبل كل شيء إيمانه العميق بتحقيق مجتمع عادل وبقيام فلسفة إنسانية .

وقد فهم فروم ماركس طبقا لمنظوره الإجتماعي النفسي . وقد كان السؤال الجوهري الذي طرحه في هذا الإطار هو : هل هناك أسباب نفسية واجتماعية نفسية تجعل الناس غير قادرين على رؤية تعاستهم وعلى مقاومة هذه الأخيرة؟ ومن أجل الإجابة على هذا السؤال استعمل فروم مفهومين ماركسيين أساسيين : الإغتراب والإغتراب الذاتي . ففروم يؤمن بعمق مع ماركس بأنه بإمكان الإنسان أن يعيش من قوته الذاتية ، لكن هناك متطلبات اقتصادية وسياسية وثقافية اجتماعية تؤدي به نفسيا إلى التغرب وإلى فقدان الطريق إلى ذاته وإلى الطبيعة وإلى الناس الآخرين .

ما هو مهم هو توجه الطبع المجتمعي

حاول فروم فهم إشكالية استلاب الإنسان نفسيا باستعمال مفهومي الطبع المجتمعي المنتج أوغير المنتج. والإنسان المُستلَبُ هو ذاك الذي لم يعد قادرا على جلب القوة من حياته الفيزيقية والروحية والفكرية، ولم يعد قادرا على خلق هذه القوة من ذاته وفي ذاته. وللتمييز بين توجه الطبع المنتج وغير المنتج أهمية كبيرة عند فروم. وتظهر الملاحظة الإكلنيكية بأن ردود فعل الإنسان على حاجيات نفسية يمكنها أن تحدث طبقا لتوجهات طباعية جد كثيرة، لكن التوجهات المنتجة، الموذوعة داخل الإنسان، هي وحدها التي تمكنه من التطور والتفتح.

ولا يقتصر مفهوما المنتج وغير المنتج على الميدان العلاجي، بل يتعديانه للوصول إلى الظواهر الإقتصادية والإجتماعية، وهما اللذان يقرران السعادة أو التعاسة، ووجود معنى للحياة الإنسانية أو العكس ويؤثران كذلك في المميزات الروحية والدينية. والتمييز اللاحق لفروم بين حب الحياة وما هو حي (Biophilie) وحب الموت وما هو جامد (Nekrophilie) اللذان يقرران اختيار مبدأ الوجود أو مبدأ الإمتلاك ما هما إلا مفهومين يعززان المفهومين الأولين.

وطبقا للتصور السوسيوسيكولوجي الفرومي، فإن البنية النفسية للإنسان تكون محددة إلى حدود بعيدة في مضمونها من طرف الضروريات الإقتصادية والإجتماعية، بحيث أن الإنسان يفكر ويشعر ويسلك بنفس الطريقة التي يجب أن يسلك ويشعر ويفكر بها في اقتصاد ناجح وحياة مجتمعية دون مشاكل. ويتوقف تطور اتجاه الطبع المجتمعي على البنية الإقتصادية والإجتماعية التي تنتشر في هذا المجتمع. والشيء الحاسم هنا هو

التوجه المنتج والتوجه غير المنتج للمجتمع. ويمكن توضيح أهمية هذين التوجهين في المثال التالي لنقد الدين من طرف فروم.

الدين واتجاه الطبع المنتج أو غير المنتج

يمكن الحكم على دين ما وعلى الممارسات الدينية انطلاقا من التأثير الذي تحدثه في نفس الإنسان، يعني أي نوع من أنواع توجه الطبع أو توجه العواطف تحدثها هذه الممارسات وتقويها عند الممارس لهذه الديانة أو تلك. وقد اهتم فروم فيما يتعلق بالدين بالجانب السلطوي فيه ووضح المنطق السادي المازوخي الملازم له. كما وضح ديناميكية الإستلاب في علاقة الفرد بالله، بحيث أن المرء يتخلى عن أهم قواه الداخلية في هذه العلاقة بما في ذلك التحكم في الذات وقدرته على التعقل وعلى الحب وعلى الحكمة وعلى القوة الخلاقة فيه، ويسقط هذه القدرات الذاتية على الله، خاضعا ومستسلما له. وهكذا فإن منبع الحياة وقيمها لا توجد في الإنسان ذاته، بل إنه يأخذها كهدية إلهية قابلا إياها شاكرا حامدا.

وتثقل تأثيرات مثل هذه الديانات والعلاقة بالله ظهر الممارس بطريقة يفقد فيها المرء الثقة في نفسه ويستقر خوف كبير أو صغير داخله دون ضياع العلاقة بالله، كما أن الشعور بأن المرء يعيش ذاته يعتبر خطيئة وامتلاء بالخجل، ويصبح حب الآخرين ليس قدرة إنسانية خاصة وأصيلة لكن فقط هدية من الله.

وحتى وإن كان هذا النموذج ما يزال حاضرا في الممارسات الدينية، فإن هناك توجهات طبع جديدة طفحت على السطح في السنوات الأخيرة. والملاحظ هو أن هذه التوجهات الجديدة هي التي تحدد اليوم الظاهرة الدينية في كليتها، وتفرض على المرء

الخضوع لها بطريقة مطلقة، يعني الدفع به إلى تبعية نرجسية تشبه التبعية الجسدية المعروفة لأدوية أو مخدرات بعينها. من زاوية سيكولوجية فإن الأمر يتعلق في غالب الأحيان بأنسقة نرجسية جماعية، يكون فيها الفرد المأخوذ معزولا انعكاسا للنسق الأصلي وللأفكار الدينية للشيخ أو رئيس الفرقة الدينية التي ينتمي إليها. ويمكن أن نلاحظ أيضا بأن هناك الكثير من الممارسات الدينية التي لا تتطلب بالضرورة هذا الإرتباط النرجسي بها في طريق البحث عن الخلاص، بل أكثر من ذلك فإنها تحاول إقامة نظام عُصابي، يفهم الواقع بطريقته الخاصة.

وللظاهرة الدينية في المجتمعات المصنعة أهمية خاصة: كيف هو الإستلاب الديني في المجتمعات المنظمة على أساس السوق؟ فكما رأينا، فإن المرء يعكس في التوجه السلطوي قدراته وإمكانياته الذاتية على سلطة خارجة عنه. أما في توجه السوق (أو أكثر من هذا في التوجه الهدام Nekrophile) فإن الإستلاب يكمن في كون الإنسان يعكس قوته الخلاقة على الأشياء التي يصنعها بيده باحثا عن تحقيق ذاته في هذه الأشياء بطريقة يبحث فيها عن الخلاص بالميل إلى الأشياء (وليس بالإستسلام إلى سلطة ما). فالإستلاب يعني هنا عدم التركيز على القوة الذاتية، بل انتظار الخلاص بفضل الأشياء التقنية والأشياء المصنوعة من طرف الإنسان.

ويعتبر الدين هنا مفهوما متبادلا من طرف السوق وتوجه الإمتلاك، ويتمظهر التدين بالإعتراف بالتبعية للتسويق والبحث عن النجاح الإقتصادي وتقنية بيع النفس بالنفس إلخ. وتتمثل أوقات صلاة إنسان السوق في حملات الإشهار في التلفاز، ذلك

أن الإشهار يخلق عالما يعد بالخلاص يمكن للإنسان أن يحصل عليه بشراء شراب معتق لكي يصبح عطوفا أو أحذية الريبوك Reebock ليصبح رياضيا.

يقدم مشكل الدين نفسه بالنسبة لي بطريقة يستقطب فيها استراتيجيو السوق اليوم الناس موهمين إياهم بأن الواقع المصنوع يخلص أكثر ويحقق رغبات أكثر بكثير من الواقع الفعلي في تناقضاته. ولهذا السبب تزدهر وتزهر حاليا عوالم الإنترنيت وصناعة الترفيه والأسفار الخيالية. ويقدم الدين نفسه اليوم في شكل برامج ترفيهية أو على شكل التسويق الثقافي لأبناء العم ماك (ماك دونالدس) وثياب بينيتون Benneton أو في عالم هوجو بوس Hugo Boss وفوق جزر عطلة روبينسون.

وقد نتساءل هنا عن البديل، عن كون فهم وممارسة الدين يسمح بالخلاص ويتضمن تأثيرا إيجابيا، يعني الدين المنتج/ الخلاق لكي نستعمل عبارة فروم نفسه. في سنة 1950 نشر كتاب فروم **التحليل النفسي والدين**، الذي حلل فيه ليس فقط استلاب الدين السلطوي، بل قدم أيضا خصوصيات الدين الإنساني الخلاق، الذي يقود الإنسان إلى أن يصبح راشدا، يختار التوجه الخلاق الذي يمكنه من أن يصبح ذاتا من جديد دون أن ينكر حدوده ومحدوديته الدنيوية. وكما قام بذلك فرويد، فإن فروم انتبه في إطار نشاطه العيادي بأن ما يشفي ليس هو الإنصهار في متطلبات الحياة، لكن صيرورات بلوغ نفسية تسمح للخاصيات الشخصية بالظهور والتحقق لكي تصبح جزء من الأنا. فالسماح بتفتح ما هو مكبوت وما هو مخبأ وما يقاومه المجتمع يساعد على بلوغ النفس مرحلة نضجها. والأساسي هنا ليس هو تعرية الرغبة

الجنسية المختبئة وراء كل هذا، بل أكثر من هذا السماح بعيش القوى النفسية كقوى ذاتية وتشجيع الميول النفسية التي تقوي الذات وتوجهها إلى المحبة والتعقل وربط علاقة بينها وبين المحيط الطبيعي والإنساني الذي تعيش فيه. وكلما عاش الإنسان حياته كفاعل ذاتي في هذه الحياة، استطاع أن يطور قوى العقل والحب فيه، وهي قوى تسمح له بربط علاقة بالعالم وبالناس دون أن يفقد ذاته.

فروم والسياسة

يمكن تطبيق طريقة تفكير فروم ليس فقط على الظاهرة الدينية، بل كذلك على كل ظواهر الحياة، الإقتصاد، الثقافة، المجتمع. ومن بين الميادين التي التزم فيها فروم في حياته هناك الميدان السياسي والتزامه بالدفاع عن قضايا بلدان العالم الثالث.

منذ سنة 1950 اختار فروم أن يعيش في بلد من بلدان العالم الثالث، وطور ما بين 1957 و1958 انطلاقا من المكسيك نشاطا سياسيا كبيرا. وقد كانت مشاركته في حركة السلم التي كانت موجهة ضد الحرب العسكرية ضد الفيتنام تعبيرا واضحا عن مناصرته للدول الضعيفة. وكافح بكل ما أوتي من قوة ضد التسابق نحو التسلح والتجارب النووية. وسافر سنة 1962 إلى موسكو للمشاركة في المؤتمر العالمي للسلم. والتقى في لندن بالمبعوث السوفياتي لمناقشة حيثيات إنهاء الحرب الباردة. ونشر سنة 1961 كتابا ضخما حول السياسة الخارجية الأمريكية.

وفي منتصف الستينات كانت الفكرة التي تهمه أكثر هي محاولة جمع الإشتراكيين الإنسانيين في الشرق والغرب حول

طاولة واحدة. وقد نجح بفضل سلسلة «الإشتراكية الإنسانية» أن ينظم مؤتمرا شارك فيه ألمع المفكرين في ذلك الوقت كأدام شاف، ماكسيمليان روبل، لوسيان غولدمان، إرنست بلوخ، برتراند روسل، هيربيرت ماركوس، فولفغانغ أبنددروت، دنيلو دولتشي، نرمان طوماس، السير ستيفان كينغ هال واشتراكيو مجموعة براكسيس اليوغوزلافية، التي كانت تجمعها بفروم علاقة حميمة.

وأهم شيء دافع عنه فروم في فكره السياسي هو الفكرة التي مفادها أن الدول العظيمة كالولايات المتحدة مثلا تحمل على عاتقها المسؤولية تجاه الإنسانية جمعاء. وكانت هذه المسؤولية محددة من طرف عاملين مهمين: التسابق من أجل التسلح النووي، الذي قد يؤدي إلى حرب نووية تقضي على العنصر البشري بالمرة، وثورات العالم الثالث ضد الإستعمار.

وكان أهم شيء بالنسبة له هو تطبيع العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي، والتي كان فروم يعتقد في قيامها، لأنه فهم بطريقته الخاصة سياسة خروشتشوف Chruschtschow المسالمة والتي تحققت مع غورباتشوف عشرين سنة من بعد.

وقد كان لفروم حدس سياسي فريد، ذلك أنه قال: إن أهم حدث في هذا القرن هو الثورة ضد الإستعمار. وقد تتطور هذه الثورة في أحد الإتجاهين: إما عن طريق العنف والحروب والثورات الدموية، أو بمساعدة الدول الغنية للدول الفقيرة من أجل التقدم. وما يمكن ملاحظته فيما يتعلق بإرهاب بعض الحركات الإسلاموية هو أن فروم كان قد تنبأ بذلك عندما قال بأنه

عندما تنتهي الحرب الباردة بين الشرق والغرب، فإن أهم تحد سيظهر: نزاع الشمال والجنوب كنزاع بين الأغنياء والفقراء، بين السالبين والمسلوبين.

إريك فروم اليوم

لم يكن لمؤلفات مفكر آخر في القرن العشرين تأثير أكثر من مؤلفات إريك فروم. فقد تجاوزت مبيعات كتبه الملايين من النسخ. إذ بيع أكثر من 25 مليون نسخة من كتابه **فن الحب**، وبيع من **الوجود أو الإمتلاك**، وكذا من بواكر مؤلفاته **الخوف من الحرية** ما بين خمسة و10 ملايين نسخة. عشرون سنة بعد موته ترجمت الثلاثون كتابا التي ألفها إلى أغلب اللغات الأوروبية. فأهم كتبه موجودة بالإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية. ونشرت له الكثير من الترجمات في الدول الإسكندنافية، إسرائيل، هولندا، يوغزلافيا القديمة. وقد اكتشفت أعمال فروم وترجمت إلى اليابانية والكورية وفي دول المعسكر الشرقي القديم بما في ذلك روسيا، بولوندا، هنغاريا، والشيشان. ولا غرابة أن يهتم المرء اليوم بأعمال فروم في الدول العربية حيث ترجمت الى العربية الكثير من كتبه. وما يثير الإنتباه هو أن الكثير من الشباب في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا أصبحوا اليوم يهتمون أكثر فأكثر بأعمال فروم، وبهذا يمكن القول بأن فروم يعرف نهضة جديدة جد مهمة.

ومن أجل دعم أعمال فروم بعد موته، تأسست في ألمانيا سنة 1985 الجمعية العالمية لإريك فروم. وإلى جانب المجموعة الألمانية هناك الكثير من المتخصصين في ميادين مختلفة من الولايات

المتحدة الأمريكية والمكسيك وإسبانيا وإيطاليا وغيرها. وعلى العموم، فإن أغلبية النشطين في الجمعية العالمية لإريك فروم ليسوا بالضرورة سيكولوجيين أو فلاسفة فقط، لكن هناك أناسا مختلفين منهم السوسيولوجيون والبيداغوجيون والسياسيون والأطباء والصحافيون، والطلبة وأباء وأمهات عاديون. وعلى العموم فإن الجمعية تحمل على عاتقها حماية وتطوير وتوسيع ونشر فكر فروم.

وعلى أمل أن تكسب الجمعية العالمية لإريك فروم أصدقاء من العالم العربي، الذي تعرف فيما قبل على أعمال فروم بترجمات رديئة ودون إذن قام بها غير متخصصين، تشكر الجمعية د. حميد لشهب على المجهودات الكبيرة التي قام بها لنقل هذه النصوص إلى العربية ونيته في ترجمة نصوص أخرى تعميما للفائدة على أبناء قومه، في زمن ما أحوج الأمة العربية فيه لأبنائها الأبرار لتمثيلها في المحافل الفكرية الدولية وإدماجها في العالم الثقافي المعاصر دون محاولة صهرها، بل بتطعيم الساحة الفكرية بإنتاجات فكرية عربية، كما يحاول د. لشهب بترجمته المضادة من العربية إلى الألمانية لنصوص مهمة لمفكرين عرب مهمين كالبروفيسور محمد سبيلا، الذي استفدنا منه كثيرا لفهم واقع تأثير الحداثة على المجتمعات الثالثية ومنها مجتمعات العالم العربي الإسلامي.



الإنسان المعاصر و مستقبله[12]

في إطار عرض عام حول أهم مراحل التطور الغربي، لا يمكن للمرء أن يعطي إلا الخطوط العريضة بتركيز، شريطة أن يأخذ بعين الإعتبار الملاحظات التالية:

1 . تتضمن المرحلة الأولى لتطور الإنسان الغربي الحقبة الزمنية ما بين 1500 قبل الميلاد إلى بداية التاريخ الميلادي، وتتميز هذه المرحلة بانتقال الإنسان من عبادة الأوثان إلى الدين الإنساني. سأرجع إلى ما أسميه الوثنية فيما بعد، وأكتفي بالقول هنا بأنني أعني بالوثنية ذاك الشكل من بحث الإنسان التوحد مع العالم، بحيث يرجع إلى الطبيعة، إلى حيوانيته الخاصة ليستسلم لها. يستسلم للطبيعة، لما صنعته يداه (في شكل أقانيم من الذهب أو الفضة أو الخشب) أو يستسلم لأناس آخرين.

يعتقد بأن التحول من عبادة الأوثان إلى الدين الإنساني قد بدأ بالثورة الدينية لأخناتون واستمر مع اليهودية والطاوية والبوذية وفي الحقبة الكلاسيكية للفلسفة اليونانية. وكان هدف كل هذه التطورات هو خلاص الإنسان، حيث يبحث هذا الأخير عن وحدة جديدة، ليس بطريقة تراجعية كما هو الشأن في الديانات البدائية الطوطمية أو الإحيائية، التي كانت تبحث عن خلاصها في الآلهة الطبيعيين والأوثان، لكن بالتقدم إلى الأمام بحثا عن وحدة

جديدة مع العالم، حيث يجد التفتح الكامل للإنسان. مع هذا التحول إلى الدين الإنساني أثناء ١٥ قرن، الذي إذا نظرنا إليه تاريخيا سنجد أنه لا يعدو أن يكون إلا استيقاظا في الليل -بلغة مؤلف المزامير- تكون المرحلة الأولى لتطور الإنسان الغربي قد انتهت.

2. تنعكس المرحلة الأولى في تمثل خلاص تاريخي من جديد، كما نجد ذلك في المسيحية. بطريقة جد مبسطة، فإن النبوة المسيحية طورت الفكرة التالية: كان الإنسان في الجنة متوحدا مع الطبيعة، لكنه كان -كالحيوان- بدون وعي عن ذاته. وفي فعل عدم طاعة أمر الله، ولنقل في إمكانية قول لا، وعى الإنسان نفسه وخطى خطوته الأولى في الحرية. وتكون هذه الخطوة أول خطوة في التاريخ الإنساني. فقد تكسر الإنسجام الأصلي للإنسان مع الطبيعة، وطرد من الجنة وقاومه ملاكان من نار لكي لا يعود إليها.

من وجهة نظر النبوة اليهودية، فإن التاريخ هو تاريخ مقدس في معنى واسع: إنه تفتح الإنسان على إنسانيته، وتفتح لقدراته الإنسانية الخاصة للعقل وللحب. وعندما يتفتح الإنسان بالكامل، فإنه يجد انسجاما جديدا، انسجام المتفتح، العاقل، الواعي بذاته، الفرد الظريف، الذي أصبح من جديد متوحدا مع العالم، لكنه يبقى هو ذاته. إن الإنسجام الجيد هو الإنسجام القديم، لكن بدرجة جديدة. إنه انسجام، لكنه انسجام مغاير لذاك الإنسجام الذي عرفه الإنسان قبل أن يفترق مع الطبيعة.

3. من زاوية تاريخية، فإن هذا التصور النبوي اليهودي للتاريخ المقدس قد نقل في المسيحية من أرض فلسطين إلى أوروبا. وأثناء

هذا النقل تغير شكل هذا التطور ببعض الطرق. والتغير المهم الذي حصل، يتمثل في كون الخلاص الإنساني، وتغير الإنسانية لن يتم في إطار التاريخ، لكنه يعالي على التاريخ. فمملكة الله لم تعد تفهم كما هو الحال عند معظم الأنبياء اليهود كتغيير لهذا العالم، لكن كإقامة لعالم روحي جديد يعالي هذا العالم. وعلى الرغم من هذا التغيير، فإن التاريخ المقدس المسيحي هو تتمة لفكر النبوة اليهودية، ويتميز عن تواريخ مقدسة أخرى كالبوذية مثلا، لأن الخلاص بالنسبة له هو خلاص جماعي، هو خلاص الإنسانية، وليس خلاصا فرديا فقط. وحتى وإن كان التاريخ المقدس المسيحي قد غير الفكرة اليهودية للخلاص في نقطتها الأساسية، لأن الخلاص التاريخي أصبح فوق التاريخ فإنه لابد من التأكيد بأن تاريخ المسيحية قد مشى على خطوات التحرير التاريخي للإنسان، وخاصة عند المصلحين المسيحيين الأوائل والأواخر.

4. إن رسالة الإنجيل، الرسالة المفرحة، قد أدخلت تاريخيا في تيار الكنيسة المسيحية. ونجد في هذه الأخيرة علاقة صلة كانت لها أهمية تاريخية جد كبيرة: يلتحم الفكر اليهودي المقدس مع الفكر اليوناني للعلم وللنظرية. وشكل هذا الإلتحام، ممثلا فلسفيا من طرف أرسطو وأفلاطون، شيئا جديدا، تخمر في أوروبا لمدة تفوق الألف عام، وقد دام هذا التخمر من روما الوثنية (القرن الرابع) إلى نهاية العصر الوسيط الأوروبي. حملت أوروبا لمدة تناهز الألف عام بالإرث اليوناني الروماني واليهودي المسيحي. بعد ألف عام ولد من حجر أوروبا شيء جديد: المجتمع الحديث.

5. بدأ المجتمع الحديث مع النهضة. وتتميز هذه الأخيرة، حسب التقسيم الشهير لكارل جاكوب، بوركهاردت Carl Jacob Burckhard، باكتشاف الفردانية والطبيعة. ولعله من الضروري القول بالتدقيق إعادة الإكتشاف، وليس الإكتشاف. ذلك أن هذا الأخير هو إعادة ولادة الكثير مما شعر به العصر القديم اليوناني والروماني حول الإنسان وحول الطبيعة. وقد كانت النهضة بمثابة ميلاد علم جديد. فقد قبلت النهضة الرؤية النبوية اليهودية في شكل جديد، على شكل مثال .Utopie فإذا كانت النبوة اليهودية ترى المجتمع الكامل، المجتمع الجيد، المجتمع الإنساني يوم القيامة، فإن المثالية/ الطوباوية النهضوية ترى المجتمع الجيد في نهاية المكان Raum، في مكان ما على الأرض سيكتشف فيما بعد. وهنا نذكر مثلا مثاليات طوماس مور، الذي خلق كلمة أوطوبيا للتعبير عن رأي من هذا النوع، ومثل طوماسو كمبنيلا والألماني يوهان فالنتين. منذ النهضة وإلى نهاية القرن 19، كان الفكر الغربي يتميز من بين ما تميز به بكون اليوتوبيا، كشكل خاص بالرؤية النبوية اليهودية، قد حصلت على مكانة مركزية. ويصح هذا كذلك في الحقيقة على كارل ماركس، باستثناء كونه حارب اليوتوبيا، ولم يعطها تلك القيمة الإيجابية التي أعطاها إياها الكتاب اليوتوبيون الكبار.

لقد أصبح إنسان النهضة واعيا بقيمته، وأصبح واعيا بأنه مرغم على أن يتحرر من أغلال الطبيعة وأن يتحكم فيها. وقد قاد العلم الجديد وأحاسيس الحياة الجديدة على مدار القرون اللاحقة إلى اكتشاف العالم، إلى تقنية وصناعة جديدين إلى التحكم في العالم. وقد وصلت النزعة الإنسانية الجديدة في القرن 17 و18 إلى

أعلى مراتب لها. فقد تركز الفكر الغربي على الإنسان، وعلى فعل الإنسان وفي الميدان الديني تقلص مبدأ التوحيد، على الرغم من أن المعاش الديني كان قويا كما كان في القرن 13. فقد كان المؤرخ الأمريكي كارل. بيكر على حق عندما أكد أن القرن 18 لم يكن أقل تدينا من القرن 13، على الرغم من أن الأول قد عبر عن معاشه الديني بلغة ومفاهيم مغايرة للثاني. وقد اقترب القرن 19 من عصر الإكتمال: الإنسان الجديد الذي اختمر منذ نهاية العصر الوسيط إلى القرن 19. كان على عصر الإكتمال أن يحمل للإنسان التحكم في الطبيعة، والقضاء على الحرب، وتحقيق رفاهية مادية كأداة للتفتح الإنساني. وظهر بأن تحقيق الرؤية اليهودية لمجتمع أحسن، المجتمع الإنساني، قد كانت ناضجة في القرن 19. وقد كانت Menschheit الأوروبية، إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، محكومة بالإعتقاد في هذه الآمال والتمثلات. ولم تخسر هذه الأخيرة أبدا من قوتها ومن تأثيرها منذ زمن (عهد الأنبياء) إلى القرن19.

ماذا حدث أثناء ذلك؟ ماذا حصل للإنسان الغربي في 60 سنة الأخيرة؟ كانت هناك حربان عالميتان، وكانت هناك لاإنسانية النظام النازي والنظام الستاليني، وهناك الخطر المباشر للقضاء النهائي على الإنسان. فإذا كان الإنسان قد عقد لمدة قرون أمالا عظاما على المستقبل، فإنه قد فقد هذا الأمل تقريبا منذ 1914.

تحدثت عن ميلاد مجتمع جديد، وكان بودي أن أقول إنّ إنسان القرن 20 هو ein Fehlgeburt. ماذا حدث، ذلك أنه في اللحظة التي كان يظهر فيها بأن الإنسان كان في أعلى قمم اجتهاده التاريخي، تبادرت في الأفق خسارة كل شيء؟

نعرف الكثير عن هذا التطور الذي قاد إلى كل هذا. وما بدأ في القرن19 سيستمر في القرن 20 بكثافة وسرعة كبيرتين: إن نماء النظام الإقتصادي العصري يقود إلى المزيد من الإنتاج ومن سلوك الإستهلاك. لقد أصبح الإنسان Ansammler ومستهلكا، والمعاش الرئيسي في حياته أصبح أكثر فأكثر: أملك وأستعمل، وأنا موجود أقل فأقل.

إن عصبة التضامن الطبيعي تحل دون أن تعوض. فالإنسان العصري هو وحيد وخائف. إنه حر، لكنه يخاف من هذه الحرية. إنه يعيش، كما قال السوسيولوجي الفرنسي الكبير إميل دوركهايم، في انعدام المعاييرAnomie، تتميز بالتمزق أو بالإستسلام، الذي لا يجعل منه فردا، بل ذرة، لتفرده. فالذرة والفرد يعنيان نفس الشيء، أتت الكلمة الأولى من اليونانية وأتت الثانية من اللاتينية. والمعنى الذي أعطي لهاتين الكلمتين في لغتنا هو معنى متناقض. كان الإنسان العصري يتمنى أن يصبح فردا، لكنه أصبح في الحقيقة ذرة خائفة، يقذف بها هنا وهناك.

إن معايير النظام الصناعي هي الحصيلة، التكميم والمحاسبة. والسؤال المطروح دائما هو: ما هو جدير بالعمل؟ ماذا يمكن أن يكون مربحا؟ والتساؤل هكذا ضروري في الإنتاج الصناعي. لكن مبدأ المحاسبة والحصيلة والربح طبقت في نفس الوقت على الإنسان، ومرت من الإقتصاد إلى الحياة البشرية. لقد أصبح الإنسان مقاولة، رأسماله هو حياته، ويظهر أن مهمته هو أن يحسن استثمار هذا الرأسمال. فإذا أحسن استثماره، فإنه يكون ناجحا. وإذا لم يحسن اسثمار حياته، فإنه سيرسب. وبهذه الطريقة فإنه سيصبح شيئا. لكن لا يمكننا أن نغض النظر عن

الحقيقة التالية : إذا أصبح الإنسان شيئا ، فإنه سيموت على الرغم من أنه حيي فيزيولوجيا . وإذا مات الإنسان نفسيا على الرغم من أنه يحيا جسديا ، فإنه يقاد إلى السقوط ويصبح خطيرا على نفسه وعلى الآخرين .

من الأكيد أن هناك فرقا بين إنسان القرن 19 وإنسان القرن 20 . لقد كان إنسان القرن 19 فردانيا ، كان معتادا على أن يقبل السلطة أو أن يقاومها . ورواية Weg desl shl,dg fhjgv Samuel Buttler Fleischesب المنشورة عام 1929 هي مثال جميل على المقاومة ضد السلطة في الأسرة وضد الدولة في القرن19 . لقد كان إنسان القرن 19 يحس بضرورة اقتصاد المسؤولية الأخلاقية وجمعها . وكما كان عليه الحال في الغالب ، فإن أساس الفكر الأخلاقي كان يجد أساسه في طريقة الإنتاج لمجتمع القرن 19 . كان مهما تجميع رأس المال .

قامت انتقادات كثيرة في القرن 20 ضد بعض الخصائص التي لعبت دورا مهما في القرن19 . فلم يعد الأمر يتعلق في المقام الأول بالتنافس بين الناس والإختلاف الذي ينتج عن روح التنافس ، بل أصبح الناس مجموعة مشخصة بطريقة جيدة ، تعمل دون مشاكل لأن المقاولات الكبيرة لا تسير إلا بهذه الطريقة ، فقد تطور التصنيع والإقتصاد الحديثين ، وأصبحا يحتاجان للإنسان كشرط لكي يقومان ، هذا الإنسان الذي يستهلك ولا يمتلك إلا القليل من الفردانية ، ويكون مستعدا لتقبل سلطة مجهولة ، حتى وإن كان يحمل وهم كونه حرا ولا يعيش تحت سيطرة أية سلطة .

إن الإنسان العصري يبحث عن ملجأ عن جدة المقاولة أو الدولة ، ويصبح رضيعا أزليا ، لا يقنع أبدا ، لأنه لم يطور

إمكانياته كإنسان. وقد انتبه المرء إلى كون تعاسة الإنسان في فرنسا خاصة في القرن18. وحتى الكلمات التي تعبر عن هذا الوضع هي فرنسية: يتحدث المرء عن le malaise du siecle وعن le malaise ليعبر عن التعاسة في عالم يصبح آليا ودون هدف أكثر فأكثر. ما تجدر الإشارة إليه كذلك، وكما وضح ذلك دوركهايم، هو أن الإنتحار كظاهرة جماعية له علاقة مع تأليل الإنسان ومع غياب أي هدف في حياته.

الإستلاب كمرض للإنسان العصري

أريد أن أعرض بنوع من التفصيل ما أعتبره النقطة المهمة فيما يتعلق بهذا العناء malaise، لمرض العصر هذا. إن النقطة المحورية للمرض الذي يشكو منه الإنسان العصري هو الإغتراب. فبعدما نسي مفهوم الإغتراب لعشرات السنوات، فإنه قد أصبح من جديد متداولا مؤخرا. لقد استعمله هيجل وماركس، ويمكن للمرء أن يقول عن جدارة، بأن الفلسفة الوجودية هي أساسا ضد الإغتراب المتنامي للإنسان في المجتمع العصري.

ما هو الإغتراب في الحقيقة؟ يلعب ما يسمى التغريب في إطار التقليد الغربي دورا جد مهم، على كل حال ليس تحت هذا الإسم الإغتراب لكن تحت اسم عبادة الأوثان كما استعمله الأنبياء. الكثير من الناس يعتقدون بسذاجة بأن الفرق بين ما يسمى عبادة الأوثان وبين عقيدة التوحيد هو كون الله عند الوثنيين متعدد. لهؤلاء الأخيرين آلهة متعددة في الوقت الذي يعتقد فيه التوحيديون في إلاه واحد. والفرق الجوهري ليس هذا. فحسب أنبياء العهد القديم، فإن الفرق الجوهري هو كون الوثني هو إنسان

يعبد منتوج يديه. يأخذ عصى خشبية، يضرم النار في نصف منها، لكي يطهو كعكعة مثلا، وينحت من الجزء الآخر شكلا لكي يعبده. لكن ما يعبده هي أشياء، لها أنوف لكنها لا تشم، لها آذان لكنها لا تسمع، لها أفواه لكنها لا تتكلم. ماذا يحصل في الوثنية؟ إذا فهمها المرء هكذا، كما فهمها الفكر النبوي، فإن ما يحدث هو بالضبط ما سماه فرويد بـ التصعيد. وأعتقد بأن التصعيد، كما نعرفه في التحليل النفسي، هو طريقة تمظهر الوثنية: يصعد الإنسان معاش نشاطاته الشخصية أو تجربته الشخصية -قوة حبه، قوة فكره- على شيء خارج عن ذاته. وقد يكون هذا الشيء إنسانا آخر أو شيئا ما من الخشب أو من الحجر مثلا. وبمجرد ما يقيم الإنسان هذه العلاقة التصعيدية، فإن علاقته بنفسه لا تتم إلا عن طريق استسلامه لهذا الشيء الذي صعد فيه وظيفته الإنسانية الخاصة. أن يحب الإنسان بطريقة (اغترابية أو وثنية) يعني إذن: إنني أحب فقط عندما أخضع للوثن الذي صعدت فيه كل قوة حبي. أو: أنا جيد فقط عندما أخضع للوثن الذي صعدت فيه كل قوة حبي. وهكذا دواليك مع الحكمة والقوة وكل الخصائص الإنسانية الأخرى.

وكلما أصبح الوثن قويا، يعني كلما صعدت عليه ماهيتي، كلما أصبحت أنا فقيرا وتابعا له، لأنني أضيع عندما أصعد فيه كل شيء، والتصعيد في التحليل النفسي غير مغاير لهذا. يتعلق الأمر في غالب الأحيان بالتصعيد المتعلق بالأب وبالأم، يصعد تجاربه الخاصة على الأب وعلى الأم الذي يرى. والجوهري في المسألة هو ليس كون الطفل يصعد على أبيه وأمه، لكن معاش التصعيد نفسه، الذي يبحث عن طريقه الإنسان الراشد يصبح وثنا. وإذا

وجد هذا الأخير، يكون بالإمكان أن يعبده طول حياته، فإنه لا يكون في حاجة للخوف. وأعتقد أن هذا هو السبب في كون الكثير من الناس يذهبون عند المحلل النفسي ولا يفارقونه أبدا، أو كون الكثير من المجتمعات تختار مسيرين أبلد وأصم من أوثان العهد القديم، لكنهم مسيرون يتحكمون في تصعيدات الناس عليهم لكي يتحكمون فيهم.

وبطبيعة الحال ليس هناك في المجتمع العصري لا Baal ولا Astark. وبما أننا قد تعودنا على خلط الأسماء بالأشياء، فإننا نكون مقتنعين جيدا بأن الأشياء التي ليس أسماء لا توجد. والحقيقة أننا نعيش في مجتمع أكثر وثنية بالمقارنة مع العصور السابقة.

وكان الإغتراب عند هيجل وماركس يعني كذلك أن الإنسان يضيع، ويكف عن عيش ذاته كمركز لنشاطه. إن الإنسان يمتلك كثيرا ويستعمل كثيرا، لكنه لا يساوي إلا القليل (كلما كنت لا تساوي إلا القليل، كلما . . . نص ماركس ص 279). إن الإنسان لا يساوي شيئا فقط، إنه ليس شيئا، لأنه محكوم من طرف الأشياء التي خلقها هو نفسه. يريد الإنسان أن يعرف كل شيء Zauberlehrling(جوتي) إنه Golem. والإنسان محكوم من طرف الأشياء التي صنعتها يداه. وقد أصبح الإنسان نفسه شيئا. إنه لا يساوي شيئا، لكنه يشعر بأنه كبير عندما يشعر أنه متحد مع الدولة، مع الإنتاج، مع المعمل. إنه ليس شيئا، لكنه يعتقد أنه كل شيء.

لقد أعيد تكوين الإنسان العصري من طرف الأشياء التي صنعها. وللتمثيل على ذلك نقدم الملاحظة اليومية التالية: إذا التقى المرء بإنسان شاهده في التلفزة في الواقع، فإنه يقول: إنه

يشبه بالضبط ما رأيته في التلفاز! فالواقع هنا إذن هو جهاز التلفزة، وعن طريق هذا الواقع نقيس ما إذا كانت مشاهدتنا للإنسان مطابقة لما هو في الواقع. وإذا كان يشبه ما شاهده في التلفزة، فإن وعي الواقع سيكون صحيحا أيضا. فالواقع يوجد في الشيء الخارجي، والإنسان الحقيقي/ الفعلي ما هو إلا ظل هذا الواقع.

إن وعي الواقع للإنسان العصري يختلف جذريا عن ذلك الذي نجده عند الإنسان في كتاب هانس كريتيان أندرسن **الكسوة الجديدة للقيصر**. في الحقيقة يظهر القيصر في القصة عاريا، وباستثناء الشاب الصغير، فإن كل واحد يعتقد بأنه يرى لباسا جميلا ملبوسا من طرف القيصر. كان كل الناس مقتنعين مسبقا بأن للقيصر لباس عجيب (وهكذا فإن وعي الواقع الشخصي، أي رؤية القيصر عاريا، يرفض، ويحافظ كل واحد عن الصورة التي له عن القيصر). وتوجد هذه الظاهرة منذ قرون وقرون. وبهذه الطريقة كان بإمكان أبلد الناس أن يصبح حاكما. كان الحكام ينشرون الإعتقاد بأنهم حكماء، وحكموا هكذا إلى أن اكتشف العكس. ففي حكاية اللباس الجديد للقيصر كان القيصر موجودا بالفعل. والمشكل هو أنه كان عاريا في الوقت الذي كان الكل يعتقد بأنه لابس. واليوم لا يوجد هناك قيصر، ولا يكون الإنسان واقعيا إلا إذا كان موجودا في الخارج. يعاد تكوينه كإنسان حي عن طريق الأشياء وما يمتلكه وعن طريق دوره الإجتماعي وشخصيته لكنه لا يوجد واقعيا.

وأتعس وأحلك رمز للإغتراب هي الأسلحة النووية. إنها نتاج الإنسان. إنها تعبير فعلي عن قدراته العقلية، لكنها هي التي

تتحكم فينا. ذلك أن السؤال المطروح حاليا هو بالضبط ما إذا كنا نتحكم فيها أم لا. فنحن البشر الأحياء، الذين نحب أن نعيش، أصبحنا دون قوة، لكن نظهر على أننا بشر كاملي القدرة. نعتقد أننا نحكم، لكننا محكومون، ليس من طرف مستبد، لكن من طرف الأشياء. لقد أصبحنا دون إرادة ودون هدف. نتحدث عن التقدم والمستقبل، لكن لا نعرف إلى أين نحن ذاهبون، ولا يمكننا أن نقول إلى أين سيوصلنا كل هذا، وليس لنا أي هدف.

في القرن 19 كان بإمكان المرء أن يقول: مات الله. ويجب على المرء أن يقول في القرن 20: مات الإنسان. وما وصلنا إليه اليوم هو: لقد مات الإنسان، لتحيى الأشياء. لقد مات الإنسان، ليحيى منتوجه. ليس هناك أحسن مثال على اللاإنسانية الجديدة خير من فكرة القنبلة النيترونية. ماذا سيعمله السلاح النيتروني؟ سيقضي على كل ما هو حي، وسيبقي على ما هو غير حي: الأشياء، المنازل، الطرقات.

اللامبالاة كطريقة جديدة لتمظهر الشر

إذا تأكل المرء كل شيء: إغتراب الإنسان وفقدان الرقابة على النفس وعن المصير الإنساني والأشياء التي نصنعها، فإنه بالإمكان القول بأن مفهوم الشر قد تغير جذريا. فقد كان معروفا إلى الآن كون الشر يأتي من البشر. كل واحد منا مجرم وكل واحد منا ملاك. كل واحد منا مجرم وكل واحد شرير. وبما أن الشر يأتي من البشر، فإنه بإمكاننا أن نفهم هذا الأخير طالما نرى هذا الشر فينا. ومن أهم نقط المحلل النفسي هو أنه لا يشمئز أمام الشر في الآخرين، لأنه يعيشه كشيء إنساني.

لكن ما نلاحظه اليوم هو شيء آخر. ليس هناك الشر في مقابل الخير، لكن هناك الكثير من اللاإنسانيات: اللامبالاة والإغتراب الكامل واللامبالاة الكاملة تجاه الحياة. وأريد أن أضرب المثل على هذه اللاإنسانيات بظاهرتين: ظاهرة Eichmann وظاهرة الإستراتيجية النووية.

لا يعطي Adolf Eichmann الإنطباع بأنه شرير، بل إنه مغترب بالكامل. إنه بيروقراطي، القتل أو العناية بطفل سيان عنده. لقد توقفت الحياة بالنسبة له لكي يعيش حيا بعض الشيء. إنه ينظم فقط. وهذا التنظيم هو هدف في حد ذاته، سواء تعلق الأمر بأسنان الذهب أو بشعر المقتولين أو بعربات القاطرات وأطنان الفحم. إنه غير مبالي بكل هذا. وعندما دافع أيخمان عن نفسه ونبه إلى أنه لم يكن إلا بيروقراطيا، لم يعمل في الواقع أكثر من تنظيم مواعيد القطارات، فإنه لم يكن كاذبا. وأعتقد أن جزء من أيخمان يسكن في كل واحد منا اليوم.

وبراهين أيخمان لا تختلف كثيرا عن الأفكار التي يقدمها استرتجيوا النووي. أذكر هنا أحد أهم استراتجيي النووي، الأمريكي Herman Kahn، الذي قال بأنه إذا مات مليون أمريكي في الأيام الثلاثة الأولى لحرب نووية، فإنه بالإمكان تحمل هذا، لكن إذا مات 90 مليون، فإن ذلك سيكون كثيرا. إن الأمر يتعلق بنفس العملية الحسابية، بنفس الحاصل Bilanz المتعلق بالحياة وبالموت، كما عاشها أيخمان بطريقته عندما قاد الناس إلى الموت.

لقد قال Kahn في مؤلفه (On Thermonuclear War, 1960, P. 47): صحيح أن الحرب شيء مهول، لكن السلام مهول كذلك.

وكون الحرب النووية أهول من هول السلام ما هي إلا مسألة حسابية. وعندما سأله بعض الصحفيين عن مغزى ما قاله، أجاب بما لا يمكن للكثير من الناس أن يقولونه : ماذا تريدون؟ في العمق ليس هناك أحد سعيد. أين هو الفرق إذن (خانة في جريدة **سان فرانسيسكو كرونيك** بتاريخ 27 مارس 1961). من وجهة نظر إكلينيكية، بإمكان المرء أن يؤطر الإنسان الذي يقول بأنه يجب حساب هول الحرب بالمقارنة مع هول السلام كـ schwer depressiv. ويمكن للمرء أن يفترض أنه يحاول فقط الإحتماء من الإنتحار. والحقيقة أنه بالإمكان القول بأنه أحمق ويمكن للمرء أن يعطف عليه. والمخيف هو أن هذا الإنسان ليس استثناء، بل إن هناك الملايين من الناس ممن يفكرون هكذا. إن هذا السلوك للإنسان الذي أصبح لا إنسانيا، الإنسان الذي لا يهتم، الإنسان الذي لا يسهر ليس فقط على أخيه، بل وأيضا على نفسه، هو سلوك يميز الإنسان المعاصر.

البديل : إعادة إحياء نهضة النزعة الإنسانية

هل هناك مستقبل بالنظر إلى مرض الإنسان العصري؟ أعتقد أن الجواب لن يستقيم إلا بتقديم بديل. وأود هنا أن أقدم ملاحظة هامة. إذا تحدث المرء عن القوانين في حياة الفرد والمجتمع، فإننا سوف لن نجد نفس العلاقات السببية المعروفة : (أ) تسبب (ب). إن هذا النوع من الحتمية هو عادة خاطئ. في غالب الأحيان يمكن للمرء أن يقول : يمكن لـ (أ) أن يقود إلى بديل أو بديلين أو ثلاثة بدائل أو إلى أربعة بدائل، إلى هذه البدائل وليس إلى غيرها. يمكننا أن نستنتج وأن نقرر بأن الشروط المعطاة لا يمكن أن تقود إلى بدائل معينة قليلة ممكنة. في بعض الأحيان يكون هناك بديلان

فقط، وفي بعض المرات أكثر من هذا. ودون ادعاء أننا سنقدم نبوءة هنا، فإننا نعتقد أنه ليس هناك بالنسبة للإنسان العصري، أوبالنسبة للإنسان فوق هذه الأرض عامة، بديل بين التوحش وبين إعادة إحياء النزعة الإنسانية.

قد يكون ما يعتقده بعض العلماء صحيحا، بحيث إن القوة الهدامة للسلاح النووي سوف لن تقود إلى التوحش، لكن ستقود ببساطة إلى القضاء على الجنس البشري وعلى كل ما هو حي. وإذا لم نصل إلى هذا، فإنه بالإمكان أن نصل إلى وحشية وإلى ديكتاتورية من لم يمت بعد الحرب النووية. فالذين سوف لن يموتوا سيقيمون ديكتاتورية عالمية، حيث ستضيع كل القيم الغربية، وستكون ديكتاتورية الآلة والإنسان الآلي.

الإمكانية الأخرى التي أرى هي أن الإنسانية التي كانت تولد في القرن ستولد بالفعل. ويشترط هذا أن يعي الناس وضعيتهم الحالية، ليس فقط النفسية بل والروحية في المقام الأول، التي تقودهم إلى الإغتراب. ويمكن أن نقارن هذا الأمر مع العلاج النفسي الفردي: من اللازم أن يعرف المرء أولا من نحن وما هي دوافعنا وإلى أين نحن ذاهبون. وفقط عندما نكون واعين بهذا، يكون بإمكاننا أن نعرف إلى أين نحن ذاهبون.

أعتقد أن إعادة إحياء النزعة الإنسانية ممكن، لأن كل الشروط متوفرة لذلك. فالشروط المادية متوفرة. ذلك أن الخيرات المادية متوفرة بما فيه الكفاية للجميع، وليس من الحق حرمان أي كان منها. لأول مرة أصبحت فكرة وحدة الإنسانية ممكنة. فقد استطاع الإنسان بالفعل في مدة قصيرة في تاريخه أن يقتصد الجزء الأوفر من قوته لكي يأكل، وبقي له الوقت الكافي لكي يصبح تطوير

قوته هدفا في حد ذاته. فالشروط متوفرة لكي يصبح الهدف من جديد هو تطوير ما هو ناضج، خلاق، حي وعقلي في الإنسان، وألا يبقى هذا الهدف ثانويا.

وبما أنني لازلت اشتراكيا، كما كنت دائما، فإنني أعتقد بأن الشكل الجديد للمجتمع لابد أن يكون شكلا من الإشتراكية الإنسانية، التي تتميز عن الرأسمالية وكذا عن الإشتراكية المغلوطة الممارسة في الإتحاد السوفياتي. والسؤال المطروح هو كم من الوقت لازال لنا لكي نصل إلى الإقتناع الذي يسمح لنا أن نغير طريقنا.

لقد قال رالف فالدو إمرسون Ralf Waldo Emerson منذ قرون: إن الأشياء فوق ظهر الحصان هي التي تقودنا. وأود أن أنبه إلى التغيير الذي نادى إليه إمرسون. وقد كانت إشكالية لوثر Luther ما إذا كان الشيطان جالسا على السرج ويقود الإنسان. والشيطان كان هو الشر، وكما أشرت إلى ذلك سابقا، فالشر كان إنسانيا. ولا يتعلق الأمر بالنسبة لنا اليوم بكون الشيطان هو الذي يقودنا. إن مشكلنا هي أن الأشياء هي التي تقودنا. الأشياء التي صنعناها بأيدينا. وكخاتمة لما قاله إمرسون، يمكن للمرء أن يقول: سوف لن يكون هناك مستقبل للإنسان العصري إلا عندما يجلس من جديد على ظهر الحصان.

الفائض عن الحاجة والسأم في مجتمعنا [13]

1. الإنسان غير الحيوي/النشيط (14)

قبل الحديث عن موضوع الفائض عن الحاجة والسأم، لابد أن أقدم في البداية ملاحظة تتعلق بمعنى هاتين الكلمتين. وهذا التحديد لا يقتصر على موضوعنا هذا فقط، بل ينطبق على كل المواضيع. فعندما يفهم المرء المعنى الدقيق لكلمة ما، فإنه يفهم في غالب الأحيان كذلك الإشكاليات التي تكون لها علاقة بهذه الكلمة.

لنتمعن هاتين الكلمتين. للكلمة الأولى معنيان، الأول إيجابي، لأن الفائض عن الحاجة يعني ذاك الذي يفوق ما هو ضروري: فوق الحاجة. قد يتذكر المرء مثلا التصور الإنجيلي عن الأرض التي يسيل فيها الحليب والعسل. وقد يتصور تجمع الأحباب حول الشراب وكل ما هو محبوب بطريقة وافرة وفائقة عن الحاجة.

في هذه الحالة إذن، فإن المرء يكون بصدد شيء جد مفرح، حيث لا ضائقة يد ولا خصاصة ولا احتياط من الحاجة إذا ما تناول المرء كثيرا. إن هذا هو الفائض عن الحاجة الجيد، يعني فوق الحاجة.

لكن قد يكون للفائض عن الحاجة معنى سلبي، كما نجد ذلك في كلمة Ueberfluessig، بمعنى تبذير بدون هدف. فعندما نقول لإنسان ما: إنك زائد هنا، فإننا نعني: من الأفضل أن تذهب من هنا، ولا نعني: جميل أن تكون هنا كما نقول عندما نتحدث عن الزيادة عن الحاجة للخمر. إذن، فإن الفائض عن الحاجة يمكن أن يكون فائق Ueberfliessend ويمكن أن يكون Ueberfluessig (زائد). ويجب على المرء أن يتساءل هنا بأي معنى نتحدث عن الفائض عن الحاجة هنا.

والآن كلمة حول السأم Ueberdruss أو Verdruss(15). فكلمة Verdruss مشتقة من Verdriessen وتعني في الألمانية: إنتاج السأم وكانت تؤدي نفس المعنى عند الغوتيين مثلا، يعني السأم إذن كل ما ينتج الحزن والملل والضجر. وفي الفرنسية نجد كلمة Ennui التي أتت من اللاتينية Inudiare وتعني الوجود في العداوة، وإنتاج العداوة.

ويمكننا منذ الآن أن نتساءل ما إذا لم تكن اللغة تعني بأن الفائض عن الحاجة الزائد لا يقود إلى الملل وإلى الكراهية. إذا كان علينا أن نبحث عما إذا لم نكن نعيش في الفائض عن الحاجة، وعندما أقول نكن فإنني أعني المجتمع المصنع كما تطور في و. م. أ وفي كندا وفي غرب أوروبا. هل نعيش في الفائض عن الحاجة؟ هل هو فائض زائد؟ هل من الضروري أن يقود الفائض عن الحاجة إلى السأم؟ وكيف هو الفائض عن الحاجة الجيد الذي لا يقود إلى السأم؟ والجواب عن هذا السؤال هو محور هذا العرض.

ليسمح لي قبل كل شيء الإدلاء بملاحظة من طبيعة سيكولوجية. أريد، باعتباري محللا نفسيا، أن أتحدث في هذا

العرض عن الإشكاليات النفسية، ولابد أن أضيف هنا بأنني سوف أتحدث من وجهة نظر محددة، يعني من وجهة نظر سيكولوجية الأعماق أو التحليل النفسي اللذين يعنيان نفس الشيء تقريبا.

أريد أن أردد ما يعرفه الكثيرون: هناك طريقتان، إمكانيتان لدراسة مشكلة الإنسان سيكولوجيا. فالسيكولوجية الأكاديمية تدرس الإنسان حاليا في أغلب الأحيان من وجهة نظر البحث السيكولوجي، أو كما سمى المرء ذلك السلوكية. يعني أن المرء لا يدرس إلا ما يمكنه رأيته وملاحظته مباشرة، يعني ما يمكن قياسه ووزنه. وما لا يرى ويلاحظ مباشرة لا يمكن من طبيعة الحال قياسه ووزنه، على كل حال ليس بالدقة المطلوبة.

سيكولوجية الأعماق، الطريقة التحليل نفسية تباشر عملها بطريقة أخرى، ولها هدفها الخاص. إنها لا تفحص سلوكا ما من زاوية ما يمكن للمرء رؤيته، بل تتساءل عن نوعية هذا السلوك، وعن الدافع الذي يؤسس هذا السلوك. وليسمح لي بإعطاء بعض الأمثلة الصغيرة. عندما يكون إنسان ما يبتسم، فإن المرء يمكنه أن يصور ويصف هذا السلوك. لكننا نعرف أن هناك فرقا بين ابتسامة البائعة في دكانها وابتسامة شخص يريد إخفاء العداوة عن عدوه أو ابتسامة صديق يفرح لرؤية صديقه. إننا نعرف الفرق بين مئات أنواع الابتسامات النابعة من أسباب نفسية مختلفة. يمكن للابتسامة أن تعبر عن نقيض ما نلاحظه، وليس هناك أية أداة يمكنها أن تقيس أو تفهم طبيعتها، والوحيد الذي يمكنه ذلك هو ذاك الذي لا يعتبر آلة، يعني الإنسان. إننا لا نلاحظ بالعقل فقط، بل -ولأعبر عن ذلك بطريقة تقليدية- بالقلب كذلك. يفهم المرء

ما يحدث ويشعر بمعنى ابتسامة ما . وعندما لا يكون للمرء أي شعور بذلك ، فإنه يعيش الكثير من الإحباطات في حياته .

لنأخذ وصفا أخر لسلوك ما : لنتصور إنسانا ما يأكل . واضح إذن أنه يأكل ، لكن كيف يأكل؟ هناك من يبلع ، وهناك من يأكل بطريقة يمكن للمرء أن يتعرف عن طريقها بأنه متحذلق كثيرا ، وبأنه يعطي أهمية كبيرة لإفراغ صحنه . هناك من يأكل دون التهام ، يأكل لأن ذلك يعجبه ، إنه يأكل فقط ، وهذا يعود عليه بالنفع .

ولنأخذ مثالا أخر : يصيح إنسان ما حتى يصبح وجهه أحمر ، ويقول المرء عنه : إنه منفعل . طبعا إنه منفعل . وإذا انتبهنا أكثر إلى هذا الإنسان (قد يكون من بين معارفنا) لفهم ما به ، فإننا سوف نلاحظ على التو بأنه خائف ، وبأن الانزعاج ما هو إلا رد فعل على خوفه . وإذا تأملنا بعمق ، فإنه بإمكاننا أن نستنتج التالي : إن هذا الإنسان ، والذي لا حيلة له ، خائف قبل كل شيء من الحياة . إذن فإن المرء قد قام بملاحظات ثلاثة : أن هذا الإنسان منفعل وأنه خائف وأنه يشعر شعورا عميقا بأن لا حيلة له . لكن المرء ينطلق هنا من مستويات مختلفة لبنيته . فالملاحظة التي تتأسس على عدم الحيلة هي الملاحظة التي تصف بدقة حالة هذا الإنسان والملاحظة التي لم تسجل إلا انفعاله هي ملاحظة جد سطحية ، هذا يعني أنني إذا لم أستنتج من انفعال الشخص الذي أمامي سوى كونه منفعلا ، فإن استنتاجي يكون خاطئا . لكن عندما أرى ما وراء انفعال هذا الإنسان ، أي كونه خائفا ، وبأنه يشعر بانعدام حيلته ، فإنني سأتعرف على هذا الإنسان أكثر ، ومن الممكن أن يخفف عن حاله ، لأنه سوف لا يشعر بأنه في خطر .

من وجهة نظر التحليل النفسي ، فإن المهم في المقام الأول ،

فيما سبق هو أن نعرف كيف يسلك إنسان ما عندما نلاحظه من الخارج، لكن ما يهمنا هي الدوافع التي تؤدي إلى هذا السلوك، سواء كانت هذه الدوافع غير واعية أو واعية. إن ما يهمنا هو نوعية السلوك. هناك زميل لي تيودور رايك16 قال مرة: إن التحليل النفسي يسمع بالأذن الثالثة. وهذا صحيح، ويمكن للمرء أن يقول -كما كان يقال قديما- بأنه يقرأ ما بين السطور. إنه لا يرى فقط ما يعرض عليه، بل يرى في هذا المعروض القابل للملاحظة أكثر، يعني أنه يرى بعض الشيء من جوهر شخصية الإنسان الذي يعالجه، هذا الإنسان الذي يكون كل سلوك من سلوكاته فقط بصمة ومظهرا يلونان على الدوام من طرف شخصية هذا الإنسان. ليس هناك أي فعل سلوك لا يكون شكلا لكل الشخصية الخاصة بالإنسان، ولهذا السبب فإنه لا يوجد هناك أبدا شخصان متشابهان. قد يكونان متشابهين جسديا، وقد يكونان منتميين لنفس العائلة، لكنهما ليسا متشابهين. ليس هناك شخصان يرفعان أيديهما بنفس الطريقة ويمشيان بنفس الطريقة ويحركان رأسيهما بنفس الطريقة. ولهذه الأسباب فإنه يكون بالإمكان في بعض المرات التعرف على شخص ما من خلال طريقة مشيه على الرغم من عدم رؤية وجهه. إن طريقة مشي إنسان ما تكون جد خاصة تماما كوجهه، لكنه من الصعب إخفاء طريقة المشي. يمكن للمرء أن يكذب عن طريق الوجه، وهذه خاصية إنسانية تميزه عن الحيوان، لكن الكذب عن طريق المشي يكون أصعب، حتى وإن كان بالإمكان تعلم ذلك.

بعد هذه الملاحظات التمهيدية نود أن نستعرض الاستهلاك كمشكل سيكولوجي، أو بالأصح كمشكل علم النفس المرضي. قد تتساءلون ماذا يعني هذا؟

من الضروري على كل واحد منا أن يستهلك . على كل إنسان أن يأكل ويشرب ويلبس ويسكن . باختصار إنه يحتاج ويستعمل أشياء كثيرة ، وهذا ما يسميه المرء الاستهلاك . هل هذا مشكل سيكولوجي؟ إن هذا سنة الحياة . من أجل البقاء لابد للإنسان أن يستهلك . وهنا بالضبط نصل إلى عمق الإشكالية : هناك استهلاك وهناك استهلاك . هناك استهلاك مفروض مؤسس على الجشع . هناك ضغط للأكل أكثر ، للتبضع أكثر ، للامتلاك أكثر ، للاستعمال أكثر .

قد يقول المرء : أليس ذلك عاديا؟ نريد كلنا أن نوسع ونكثر ما نكسبه . المشكل في أقصى الحدود هو أنه ليست للمرء الإمكانيات المادية الكافية ، لكن ليس هناك أي شيء خاطئ في الرغبة في توسيع وإكثار ما نملكه . الكثير من الناس يفكرون هكذا . لكننا نريد عن طريق مثال أن نوضح أن هذا الأمر ليس بهذه البساطة ، وهو مثال من الأكيد أن الكثير قد سمعه ، وأتمنى أن قلة فقط عاشته . لنأخذ إنسانا يعاني من السمنة ، ويأكل ببساطة بكثرة . قد تكون لسمنته أسباب عديدة لا مجال لذكرها هنا . لكن في الغالب هناك سبب وحيد ، وهو ببساطة أن المرء يأكل بكثرة . يأكل يمينا وشمالا ، وفي غالب الأحيان يأكل سكريات . وعندما نتأمل ذلك عن قرب ، فإننا نستنتج بأنه لا يأكل بطريقة متواصلة فقط ، لكن هناك دافع يفرض عليه الأكل . لابد عليه أن يأكل ، تماما كالمدخنين الذين لا يقلعون عن التدخين . ونعرف أن الكثير من الناس تأكل أكثر عند الإقلاع عن التدخين . يجدون عذرا عن عدم الإقلاع عن التدخين في كون ذلك يقود إلى السمنة . وهذا من بين الأسباب التي تقود إلى عدم الإقلاع عن التدخين . لماذا؟ لأن نفس الضغط ،

المتمثل في أخذ شيء إلى الفم، في بلع شيء ما بالأكل أو بالتدخين أو بالشرب أو بالتبضع كذلك، يتمظهر هنا.

وإذا أتمر الإنسان لتعاليم طبية للإقلاع عن التدخين، لأنه قد يموت من جراء سكتة قلبية، فإن المرء سيلاحظ بأن هذا الإنسان سيصبح قلقا على التو، غير متأكد من نفسه ومحبطا. نلاحظ هنا ببساطة علاقة تستحق الاهتمام: إن عدم الأكل، عدم الشرب، عدم التدخين يمكن أن يؤدي إلى الخوف. إن هناك أناسا يأكلون أو يتبضعون، ليس للأكل أو للتبضع، لكن لإخفاء خوفهم أو إحباطهم. يستهلكون بلا هوادة من أجل الخروج من قلقهم. إن الاستهلاك يوعد بالشفاء، وبالفعل فإن حالة الخوف أو الإحباط أو الخوف تقل قليلا عندما يشبع دافع الاستهلاك. يمكن للكثير منا أن يشهدوا، عندما يشعرون بقلق أو بإحباط، أنهم يفتحون باب الثلاجة، دون أن تكون لهم رغبة في الأكل، لكي يأكلوا أو يشربوا شيئا ما. بكلمات أخرى: قد يأخذ الأكل والشرب في بعض المرات وظيفة مخدر، قرص مهدأ. وهذا الأخير يكون أسهل وله مذاق لذيذ.

إن الإنسان المحبط يشعر بالفراغ في داخله، وكأنه مكتوف الأيدي، وكأن شيئا ينقصه لكي يصبح نشيطا. وإذا أكل شيئا ما، فإن الشعور بالفراغ، بالشلل، بالضعف قد يختفي لمدة ما، ويشعر بأنه ذا قيمة، وبأن له شيئا وبأنه ليس عدما. إن المرء يشعر بالأشياء لكي يخفي الفراغ الداخلي. وهذا هو الإنسان الخامل، الذي يظن بأنه قليل القيمة، وهذا الشعور هو الذي ينسيه، بما أنه يستهلك، بأنه إنسان مستهلك Homo Consumens.

لقد استعملت مصطلح الإنسان الخامل/ السلبي، وسيتساءل

القارئ ماذا أعني بذلك. ما هو الخمول وما هو النشاط؟ لابد أن أوضح قبل كل شيء المعنى الحديث للخمول وللنشاط المعروف جيدا. إن الفهم العامي يفترض بأن النشاط هو الطاقة التي يكون لها هدف فعلي، يعني العمل الجسدي والعقلي، أو الرياضة، التي تفهم في غالب الأحيان بالنظر إلى أهميتها للصحة أو مساهمتها في تلميع صورة الوطن الأم أو أن يصبح المتعاطي لها مشهورا وغنيا. من المعتاد ألا ينظر إلى الرياضة كحب للتمارين، لكن ينظر إليها من جانب معين فقط، والذي من أجله يمارس المرء هذه الرياضة. إن النشيط هو ذاك الذي يثابر. في أمريكا يقول المرء إنه busy، والذي يعني نفس الشيء business.

لكن متى يكون المرء خاملا طبقا لهذا الفهم للنشاط؟ يكون المرء كذلك عندما يغيب الهدف، وعندما لا يمكن اكتشاف أية مثابرة. مثلا إذا نظر إنسان ما إلى الطبيعة لمدة خمسة دقائق، نصف ساعة أو ساعة حتى. وبما أنه لا يصور لكن يغوص فقط في صمت فيما تراه عيناه، فإن المرء سيعتبر هذا الإنسان ملاحظا، وسوف لا يعتبر تأمله نشاطا. أو لنأخذ مثلا (على الرغم من أن هذا لا يوجد في حضارتنا الغربية) إنسان يتأمل، يحاول أن يعي نفسه ومشاعره وحالته الداخلية. إذا كان يتأمل بطريقة منظمة، فإن تأمله هذا سوف يدوم ساعات كاملة، والذين يحيطون به ولا يفهمون من التأمل شيئا سيعتبرونه شخصا خاملا لأنه لا يعمل شيئا. من المحتمل أنه يجلي فقط كل الأفكار من رأسه ويركز على ألا يفكر في أي شيء إلا وجوده. قد يظهر هذا غريبا. لكن إذا جرب المرء هذا، ولو لدقيقتين فقط، فإنه سيلاحظ صعوبة هذا الأمر، وكيف يمر كل مرة شيء ما في الذهن، وكيف يمكن أن

يفكر في أشياء كثيرة، وفي غالب الأحيان في أشياء غير مهمة، لا يمكنه التخلص منها، لأنه من الصعب بكثير تحمل الجلوس وإفراغ الرأس.

إن هذا النوع من التأمل جد مهم بالنسبة لثقافات كبيرة في الهند والصين. لكن وللأسف فإن الأمر عندنا ليس على هذا الشكل، لأننا نعتقد بطريقة عمياء أنه يجب علينا أن نعمل دائما شيئا ما نافعا للوصول إلى شيء أخر مربح. لنترك النفع جانبا ونحاول أن نركز بقليل من الصبر، وسنلاحظ بأن هذا التركيز ينشط.

حاولت أن أوضح من خلال هذا المثال بأننا نعني بالنشاط في استعمالنا اللغوي الحالي ممارسة ذات تمظهرات واضحة، في الوقت الذي يظهر فيه الخمول كشيء دون هدف، لأنه سلوك لا يتطلب أية طاقة. ولفهمنا النشاط والخمول بهذه الطريقة علاقة بإشكالية الاستهلاك: إذا كنا نستهلك الفائض عن الحاجة السيئ، فإن نشاطنا الظاهري يكون في أخر المطاف خمولا، وأي شكل من النشاط الخلاق، من الفائض عن الحاجة الجيد، من الوفرة، من المقاومة يمكنه أن يساعد لكي لا نكون مستهلكين فقط.

2. الملل الحديث

لنفكر قليلا في المعنى القديم للنشاط وللخمول كما نجد ذلك عند أرسطو وسبينوزا وجوته وماركس وعند الكثير من المفكرين في العالم الغربي للقرنين الأخيرين. لقد فهم النشاط كتعبير عن القوة الداخلية للإنسان، ما يعطي الحياة، ما يساعد على الخلق، سواء أكان ذلك جسديا أو نفسيا أو عقليا أو فنيا. عندما نتحدث عن القوة التي تسكن داخل الإنسان فإن الكثيرين قد لا يفهمون ما

نقصده. فعادة ما نعتقد أن القوة هي الطاقة التي توجد في الآلات وليس في الإنسان. وعندما نتحدث عن القوة عند الإنسان، فإنه يكون من المفترض أن يصنع الآلات ويستعملها. إن إعجابنا بقوة الآلة تكبر باستمرار، في حين يتراجع التفكير في قوة الإنسان. والجملة التي نجدها عند الشاعر اليوناني في أنتيجون Antigone : هناك الكثير من العجائب في العالم، لكن ليس هناك أعجب من الإنسان عبارة لم يعد لها معنى يذكر. نعتبر الصاروخ أعجب من هذا الإنسان الصغير. وبطريقة أو بأخرى نعتقد أننا خلقنا باختراعاتنا الحديثة أشياء أعجب مما خلق الله عند خلقه للإنسان.

يجب علينا أن نعيد التفكير عندما نهتم بالوعي وبالقوة التي تكمن في الإنسان. لا يتعلق الأمر فقط بقوة إمكانية الحديث والتفكير، بل وكذلك بالامتلاك الدائم لفكر أكبر، لتطوير نضج أكبر، وقوة حب أو فن، وكل هذا موجود عند الإنسان، ولا ينتظر إلا أن يحقق. إن النشاط والحيوية عند المفكرين الذين سبقت الإشارة إليهم هي بالضبط قوة الخلق، وتمظهر قوة الإنسان، التي تكون في غالب الأحيان إما موجهة توجيها آخر أو مكبوتة.

في النص التالي لكارل ماركس يلاحظ المرء بأنه ماركس آخر لا نعرفه في الجامعة أو في وسائل الإعلام أو في الدعاية أو عند اليسار أو اليمين. وهذا النص مقتطف من كتابه **المخطوطات الاقتصادية لسنة 1844**» ص 149 : افترض أن الإنسان إنسان، وافترض أن علاقته بالعالم هي علاقة إنسانية، وهكذا سوف تبادل الحب بالحب فقط والثقة بالثقة فقط . . . عندما تريد أن تؤثر في الآخرين، فإنه يجب عليك أن تظهر لهم كإنسان مؤثر في

الآخرين. كل علاقة من علاقاتك مع الإنسان - ومع الطبيعة - يجب أن تطابق موضوع رغبتك وتمظهر حياتك الشخصية. عندما تحب، دون أن تطالب بحب مماثل، يعني إذا لم ينتج حبك حبا مماثلا، عندما لا تستطيع أن تصبح عن طريق سلوكك كإنسان محب إنسانا محبوبا، فإن حبك سيكون دون قوة، إنه سيكون شقاء.

نلاحظ هنا أن ماركس يتحدث عن الحب كما لو كان يتحدث عن نشاط ما. إن الإنسان المعاصر لا يفكر بأنه يخلق شيئا عن طريق الحب. إن همه الهام في غالب الأحيان هو أن يصبح محبوبا، وليس أن يحب، يعني إنتاج الحب عن طريق الحب، وبالتالي تقديم شيء جد جديد لم يسبق له مثيل في العالم. ولهذا السبب فإنه يعتقد كذلك أن المرء يصبح محبوبا إما عن طريق الصدفة، أو أنه يصل إلى ذلك بشراء كل ما يمكن أن يساهم في ذلك بدء من المحلول المستعمل لغسل الفم إلى البذلة الجميلة والسيارة الفاخرة. لا نعرف شيئا عن السائل لغسل الفم ولا عن البذلة الفاخرة، لكن نعرف بأن هناك الكثير من الرجال ممن يشترون السيارة الفاخرة لكي يصبحوا محبوبين. ولابد للمرء أن يضيف أن الرجل يهتم أكثر بالسيارة منه بالمرأة. بعد ذلك يصبح كل شيء في الظاهر على ما يرام، باستثناء كونهما يملان بعضهما بعد مدة قصيرة، ولربما يتكارهان، لأنهما خانا بعضهما البعض أو أحسا بأنهما مخونان. لقد اعتقدا أنهما محبوبان، في الوقت الذي خلطا فيه في الحقيقة شيئا ما، لكنهما لم يمارسا حبا نشيطا.

بنفس الطريقة فإن المرء لا يفهم من خلال الخمول في المعنى الكلاسيكي للكلمة كون المرء يجلس، يفكر، يتأمل أو يشاهد الطبيعة، لكنه يعني رد الفعل أو Getriebenwerden.

رد الفعل فقط : لا يجب أن ننسى أننا نكون في غالب الأحيان نشيطين بطريقة نرد فيها الفعل جراء مؤثر خارجي، انجذاب وأوضاع بعينها. هذه المؤثرات التي تتطلب منا، لأننا تعودنا على ذلك، أن نعمل شيئا عندما ترسل إشارة معينة. فالكلب البافلوفي يرد الفعل بالشهية كلما سمع الناقوس، الذي أصبح يعادل الأكل. وعندما يذهب ليأخذ طعامه فإنه يكون بطبيعة الحال نشيطا. وهذا النشاط ليس شيئا آخر سوى رد فعل على مؤثر يعمل كآلة. وتهتم سيكولوجيتنا السلوكية الحالية بالتالي : إن الإنسان هو كائن رد الفعل، يحدث المرء مؤثرا، ثم يتم رد الفعل. يمكن للمرء أن يعمل هذا مع الفئران، مع القردة، مع الإنسان وحتى مع القطط على الرغم من صعوبة ذلك. ولسوء الحظ فإن الأمر أسهل مع الإنسان. يعتقد المرء أن كل سلوك الإنسان مبني على مبدأ المكافأة والعقاب. وهذان الأخيران هما المؤثران الكبيران في حياته. وينتظر منه أن يسلك ككل حيوان آخر، يعمل ما هو مكافأ عليه، ويترك كل ما هو معاقب عليه.

لا يجب أن يكون معاقبا بالفعل، لأن التهديد بالعقاب يكون كافيا. على كل حال يكون من الضروري أن يعاقب من حين لآخر بعض الأشخاص كمثال، لكي لا يصبح التهديد بالعقاب فارغا من أي معنى.

Getreibensein: لنراقب مرة مخمورا ما. غالبا ما يكون نشيطا، يصيح ويقوم بحركات. أو لنتخيل إنسانا في حالة عصابية من نوع la Manie. يكون هذا الشخص **نشيطا كثيرا**، يؤمن بأنه سوف يغير العالم، يرسل تلغرافات ويحدث فوضى، ويوحي بنشاط كبير. لكننا نعرف أن محرك مثل هذا النشاط هو الكحول في الحالة

الأولى والمرض في الحالة الثانية، حيث يكون هناك خلل إليكتروكيماوي في مخ المريض، على الرغم من أن مظهرهما الخارجي يوحي بنشاط كبير.

إن االنشاط كرد فعل على مؤثر، أوك Getriebensein على شكل مرض هو في الأساس خمول Leidenschaft، على الرغم من كل التمظهرات الخارجية. ولكلمة Leidenschaft (عشق/ وله) علاقة مع Leiden (المكابدة المعاناة). عندما يتحدث المرء عن إنسان عاشق، فإنه يستعمل تعبيرا متناقضا. لقد قال شلايرماخر Schleiermacher مرة: Eifersucht ist eine Leidenschaft, die mitl Eifer sucht, was Leiden schaft إن الغيرة هي عشق تبحث بالحماس ما يحققه الغضب. ولا ينطبق هذا على الغيرة وحسب، بل على كل عشق يوجد عند الإنسان: الإدمان على البحث عن الشرف، عن المال، عن السلطة، عن الأكل. فكل الادمانات هي عشق يسبب الألم. إنها خمول. والكلمة اللاتينية Passio تقابل في لغتنا كلمة Leiden (الألم). واستعمالنا اللغوي الحالي يكون هنا خاطئا نوعا ما، لأنه يعني بالعشق شيئا آخر. وسوف لن نتطرق إلى هذا هنا.

إذا تأملنا الآن نشاط الإنسان الراد الفعل أو getrieben، يعني الإنسان الخامل في المعنى الكلاسيكي، فإننا سنلاحظ أن رد فعله لن يحرك أبدا شيئا جديدا. إن رد الفعل يقود دائما إلى نفس الشيء: عن نفس المثير ينتج نفس رد الفعل. ونعرف جيدا ما يحدث عن هذا. كل شيء يمكن حسابه. ليس هناك مجال للمبادرة الشخصية، والقوة الداخلية لا تتطور. يظهر كل شيء مبرمجا: نفس المثير، نفس رد الفعل. ما يحدث هنا هو ما يمكن

للمرء أن يلاحظه عند الفئران في المختبر. وهذا بالضبط ما يحدث في السلوكية، التي تعتبر الإنسان أساسا كآلة، يرد الفعل على المؤثرات.

وتسمى هذه الطريقة لفهم الإنسان، لبحثه واستخلاص وصفات من هذا، علما. قد يكون ذلك علما، لكنه ليس إنسانيا. فرد فعل الإنسان الحيوي لا يكون دائما بنفس الطريقة، ذلك أنه يكون في كل لحظة إنسانا آخر. وحتى وإن لم يكن في كل مرة مغايرا، فإنه لا يكون على كل حال في كل مرة متشابها. وقد عبر هرقليط عن ذلك بالعبارة التالية: من المستحيل الاستحمام في نفس النهر مرتين، والقانون الجاري به العمل هو: كل شيء يسير، وقد أقول: قد تكون السلوكية علما، لكنها ليست علما عن الإنسان، بل علما عن إنسان غريب، مدروس بطريقة غريبة من طرف علماء غرباء. إنها قادرة على دراسة جوانب بعينها في الإنسان، لكنها لا تتناول الإنسان الحيوي الخاص.

سأحاول أن أوضح الحيوية/ النشاط والخمول بمثال لعب دورا مهما في السيكولوجيا الصناعية الأمريكية. قام البروفيسور إلطون مايو17 عندما كلفته شركة ويستيرن إليكتريك 18 بدراسة كيف يمكن الرفع من إنتاج العمال والعاملات في معامل هاوتورن19 بشيغاغو. اعتقد المرء في بداية الأمر أنه من الأفضل منحهم عشر دقائق استراحة في فترة الظهيرة زيادة على عشرة الدقائق التي كانت مخصصة للفطور في الفترة الصباحية. كان على هؤلاء العمال غير المختصين القيام بعمل ممل. لم يكن هناك أية تقنية وأي تعب، بل فقط كل الملل الذي يمكن للمرء تصوره. شرح لهم إلطون مايو ما يريد عمله وطبق استراحة الظهيرة. وبسرعة لاحظ

المرء أن الإنتاج قد ارتفع. على التو أمر بإضافة عشرة دقائق استراحة في الصباح، وزاد هذا في الإنتاج. بعد هذا اعتقد المرء أن التكثير فيما يعجب العمال يزيد في الإنتاج.

كان بإمكان أي أستاذ عادي توقيف التجربة وإخبار إدارة الشركة بأن ضياع عشرين دقيقة يسمح بمردودية أكبر. لكن مايو، الذي كان جد مجتهد، لم يتوقف. لقد تساءل ماذا سيحصل لو أنه ألغى من جديد هذا المكسب (العشر دقائق الإضافية للاستراحة الصباحية). وبالفعل حذف هذه الأخيرة، لكن الإنتاج استمر في الارتفاع. كان بإمكان بعض الباحثين أن يستنتجوا من هذا بأن التجربة لم تؤد إلى نتائج قوية. لكن في هذه الحالة، فإن ما حضر إلى الذهن هو السؤال التالي: متى كان هؤلاء العمال غير المختصين محط اهتمام فيما يعملونه في هذا المعمل؟ لقد بقي العمل مملا كالمعتاد، لكن المرء اهتم بالتجربة، وأحس العمال بأنهم يعملون للمساهمة، ليس فقط لإغناء أصحاب المعمل غير المعروفين، بل وأيضا كل المعمل. لقد استطاع مايو أن يبرهن أن ما رفع مردودية العمال هو ليس استراحة الصباح واستراحة بعد الظهر، لكن هذا الإهتمام بهم، وهو اهتمام لم يكونوا ينتظرونه. وقد كان هذا مناسبة بداية طريقة تفكير جديدة: إن ما يرفع من الإنتاج ليس هو الاستراحات والرفع من الأجور، بل هو حب العمل نفسه.

حاولنا هنا فقط توضيح الفرق بين الحيوية والخمول. فطول المدة التي لم يكن فيها المرء يهتم بالعمال، كان هؤلاء خاملين، وفي الوقت الذي سمح لهم فيه بالمشاركة في التجربة، فإن الشعور بالتعاون استيقظ فيهم وأصبحوا نشيطين وغيروا سلوكهم من الأساس.

لنأخذ مثالا أكثر بساطة، ولنقل سائحا بآلة تصوير في يده، وصل إلى مكان ما ورأى أمامه جبلا أو بحيرة أو قصرا أو معرضا. إنه لا يرى في العمق هذه الأشياء مباشرة، لكن من خلال الزاوية التي سيصور بها هذه الأشياء. والواقع أو الحقيقة المهمة بالنسبة له هي التي يتحكم فيها المرء وتصبح ملكا له. ، وليس ذاك الواقع الرابض أمامه. إن الخطوة الثانية، يعني أخذ الصورة، تأتي قبل الخطوة الأولى يعني المشاهدة في حد ذاتها. فعندما يتأكد من إيداع الصورة في حقيبته، عند إذن يكون بإمكانه إظهارها لأصدقائه، كما لو أنه خلق ذلك الجزء من العالم الذي التقط صورته، أو يكون بإمكانه تذكر المكان الذي كان فيه بعد عشر سنوات.

وكيفما كان الحال، فإن الصورة، يعني ذاك الواقع المصنوع، قد أخذت مكان الواقع الفعلي. فالكثير من السواح لا يشاهدون ما يودون تصويره، بل يلتجئون إلى آلة التصوير، في الوقت الذي يبدأ فيه المصور الجيد بتصوير ما يود تصويره بداخله قبل تصوير ذلك بالآلة، يعني أنه يبني علاقة بينه وبين ما يريد تصويره. إن هذه المشاهدة القبلية هي شيء نشيط. بطبيعة الحال لا يمكن للمرء قياس هذا الأمر، لكن بالإمكان ملاحظة ذلك في محيى المعني بالأمر: فقد تكون تعابير الوجه تعبر عن فرح المصور الذي رأى شيئا جميلا، وأراد بعد ذلك تصويره، ولربما لا. هناك أناس (على الرغم من قلتهم) لا يحبون التصوير، لأن الصورة تقضي على الذكرى. إننا لا نرى الذكرى بمساعدة الصورة. إذا حاولنا دون صورة تذكر منظر طبيعي ما سبق وأن رأيناه، فإن هذا المنظر سيحيى مرة ثانية فينا. إن المنظر يعود إلى درجة أننا قد نتصوره حيا أمامنا كما هو. وهذا ليس فقط تذكرا، كتذكرنا للكلمات، بل إنه

تذكرا يخلق من جديد هذا المنظر الطبيعي، وبهذا فإن المرء يخلق بنفسه هذا الإحساس. وهذا النوع من التذكر ينفس ويقوي الطاقة الحيوية، في الوقت الذي يقود فيه الخمول إلى الإحباط، وفي بعض الأحيان إلى الكراهية.

لنتصور أن المرء كان مدعواً إلى حفل ما، ويعرف ما سيقوله هذا أو ذاك وماذا سيقوله المرء نفسه. يبدو هذا كالعالم الآلي، واضح ومضبوط فيما يتعلق بما سيقوله كل واحد، لكل واحد فكرته ووجهة نظره. ليس هناك شيء مهم يمكن أن يحدث، وعندما يعود المرء إلى المنزل يكون متعبا ومرهقا. من المحتمل أن المرء كان يظهر بمظهر الحيوي النشيط وهو في الحفل: كلام المرء يشبه تماما كلام محدثه، ولربما انفعل المرء، وعلى الرغم من ذلك، فإن النقاش كان مليئا بالركود، على اعتبار أن المتخاطبين لم يتحدثا إلا عن نفسيهما، تماما كالأسطوانة التي نستمع إليها مرات عديدة، بحيث إنها لا تقدم أي جديد، بل تقود إلى الملل.

هناك واقعة جد مهمة في ثقافتنا، تتمثل في كون الناس ليسوا واعين بما فيه الكفاية بالممضض الذي يحدثه الملل. إذا كان المرء وحيدا، وعندما لا يستطيع المرء لسبب من الأسباب شغل نفسه بنفسه، فإنه يشعر، عندما لا يمتلك في نفسه مصدر القيام بشيء حيوي أو وعي ذاته، بالملل كحمل ثقيل، كشلل لا يمكنه شرحه بنفسه. إن الملل هو أصعب عذاب. وهو حديث ويقضي على كل ما حوله. والإنسان الذي يكون معرضا للملل دون مقاومة هذا الأخير لا يشعر بأنه إنسان محبط. لماذا لا يعرف الكثير من الناس الشر الذي يمثله الملل والعذاب الذي يحدثه؟

أعتقد بأن الجواب على هذا السؤال جد بسيط: إننا ننتج الكثير

من الأشياء التي بإمكانها أن تساعدنا للقضاء على الملل. فإما أن يتناول المرء أقراصا مهدئة أو أنه يشرب أو يذهب من حفل إلى آخر أو أنه يتخاصم مع الزوجة أو أنه يترك وسائل الإعلام تنسيه أو أنه يتعاطى الجنس لكي ينسى الملل. فالكثير من أنشطتنا هي محاولات لكي لا يصل الملل إلى وعينا. لكن لا يجب على المرء أن ينسى هذا الشعور القاتم الذي يعمنا عندما نرى فيلما سخيفا أو عندما نريد أن نقضي على الملل بطريقة سخيفة. لا يجب أن ننسى إذن عذاب الضمير الذي نشعر به في داخلنا، عندما نلاحظ أن الأمر كان مملا، وبأن المرء لم يستفد من وقته، بل إنه قتل هذا الوقت. ما يثير الانتباه في ثقافتنا إذن هو أننا نعمل كل شيء لكي ننقذ الوقت، لكي نقتصد الوقت، وعندما ننقذه أو نقتصده، فإننا نقتله، لأننا لا نعرف ماذا يمكننا عمله بهذا الوقت.

3. الحاجات المصنوعة

هناك فكرة شائعة – ليس فقط بين عامة الناس، بل عند الكثير من العلماء أيضا– مفادها أن الإنسان هو آلة تعمل طبقا لشروط بعينها. فهناك الجوع والعطش والحاجة للنوم وللجنس ولأشياء أخرى. لابد إذن من تلبية الحاجيات الفيزيقية أو البيولوجية. وإذا لم تشبع هذه الحاجات فإن الإنسان يصبح عصابيا أو يموت كما هو الشأن في حالة الجوع. و إذا أشبعت فإن كل شيء يكون على ما يرام. والظاهر أن هذا غير صحيح. فقد يحصل أن تشبع كل الرغبات الفيزيقية والبيولوجية، وعلى الرغم من ذلك لا يشبع الإنسان، بمعنى أنه لا يعيش في سلام مع نفسه، بل يكون لظروف جد معينة جد مريض، حتى وإن كان يمتلك ظاهريا كل ما هو في حاجة إليه. ما ينقصه إذن هو منشط يمكنه به إيقاض نشاطه.

أود أن أقدم بعض الأمثلة على ذلك. هناك بعض التجارب المهمة في السنوات الأخيرة تتعلق بالإنعدام الكامل للمثيرات. يضع المرء إنسانا ما في حجرة معزولة بحرارة وضوء مستقرين، ويدفع له أكله الخ. لكن ليس هناك أي مثير، هناك حالة تشبه حالة الجنين في رحم الأم. بعد أيام معدودات من التجربة يلاحظ المرء عند هؤلاء الناس حالات مرضية مهمة كانفصام الشخصية. فعلى الرغم من كونهم مشبعين فيزيولوجيا، فإن هذا الخمول النفسي ينتج أمراضا قد تؤدي عند الإنسان الراشد إلى حالة مرضية.

هناك تجارب أخرى حاول المرء فيها حرمان المجرب عليه من الحلم. هناك طريقة بسيطة لحرمان إنسان ما من الحلم، تتمثل في إيقاظه عندما يلاحظ الإنسان حركة جفنيه المغلقتين. إذا أيقظ الإنسان النائم في هذه الحالة، فإنه يحرمه من النوم. وقد لوحظت سلسلة من الأعراض المرضية عند هؤلاء الناس. وهذا يعني أن الحلم هو شيء ضروري، لأن المرء يبقى أثناء النوم نشيطا نفسيا كذلك، وعندما يوقف الإنسان هذا النشاط، فإن المعني بالأمر يبقى مريضا.

لقد قام عالم النفس الحيواني Harlow بتجربة مع القردة، ولاحظ أن هذه الحيوانات يمكنها أن تبقى منشغلة بنشاط جد معقد متمثل في لعبة بناء شيء معين لعشر ساعات طوال، دون أن يكون هناك أي مؤثر بعينه سواء أكان جزاء أو عقابا. فحتى الحيوانات إذن – وخاصة Primaten- يمكنها أن تهتم بشيء معين دون مؤثر خارجي كحصولها على الأكل أو الخوف من العقاب.

لقد اهتم الإنسان بالفن منذ 30000سنة خلت، ويقالNن ذلك

كان يمارس لأغراض السحر. لنستحضر الرسوم الجميلة للحيوانات التي أنجزها إنسان المغارات. أنجزت هذه الرسوم لأن المرء كان يعتقد أن حظه سيكون أوفر في أوقات الصيد. قد يكون هذا صحيحا، أيشرح ذلك جمال هذه الرسوم؟ لأغراض سحرية لا يكون المرء في حاجة إلى كل هذه الرسوم الفنية وتزيين المغارات أو أواني الخزف. لقد كان الجمال الذي نراه ونتمتع بمشاهدته إلى حد الساعة. وهذا يعني أن الإنسان وجد من خلال اهتمامه بالأشياء التطبيقية والمفيدة والتي يمكن استعمالها، اهتماما آخر يتمثل في النشاط الخلاق وفي تنمية القوة الداخلية له.

استعمل السيكولوجي الألماني Karl Buehler كلمة جد جميلة: الوظيفة المفرحة. والمقصود من هذه الكلمة هو كون النشاط يحمل معه الفرحة، وتكمن هذه الأخيرة في كون الإنسان يتمتع بكونه مخلوقا نشيطا، ليس لأنه بحاجة إلى هذا الشيء أو ذاك، بل لأن فعل الخلق والتعبير عن كفاءاته الخاصة تخلق في حد ذاتها الفرحة. ولهذا من طبيعة الحال نتائج -مخلفات- وآثار على التربية. لقد اكتشفت إيطالية مهمة، ماريا مونتوسوري، بأنه بإمكان المرء عن طريق المبدأ التربية القديم، المتمثل في التواب والعقاب، ترويض الأطفال، لكنه لا يستطيع تربيتهم. وقد أظهرت دراسات عديدة بعد ذلك، أن الإنسان في الواقع يتعلم أحسن عندما يخلق نشاط التعلم فرحة ظاهرة. أعتقد أن الإنسان في الواقع يتعلم أحسن عندما يعبر عن نفسه وعن القوة الرابضة بداخله. وعندما لا يحدث هذا، عندما يكون فقط يمتلك ويستهلك عوض أن يكون، فإنه يسقط ويصبح شيئا من الأشياء وتصبح حياته دون هدف. إن الفرحة الصحيحة تكمن في

النشاط، والنشاط الصحيح هو تعبير وتطور ونمو لقوة الإنسان. لا ننسى أيضا، من وجهة نظر فيزيولوجيا الدماغ، أن نشاط المخ يقود إلى تطوير خلايا المخ. ويمكن للمرء قياس هذا التطور. يشبه هذا العضلات التي يستعملها الإنسان. فعن طريق النشاط الروتيني يظهر المرء فقط ما هو دون هذا النشاط، لكن ليس ما يمكنه أن يكون.

لنحاول الآن تطبيق أفكارنا هذه حول الزوائد عن الحاجة على بعض الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية. يمكن التمييز في تاريخ الإنسانية بين عدة مراحل كبرى. يمكننا أن نبدأ مثلا بالملاحظة القائلة بأن مرحلة تطور القرد إلى إنسان كانت طويلة، ذلك أن هذا التطور دام مئأت آلاف السنين. وهذه المرحلة لم تكن خطوة معينة أو لحظة معينة، بل كانت صيرورة، تحول فيها ببطء الكمي إلى الكيفي. ولم يظهر الإنسان على هيئة إنسان إلا قبل 60000 سنة، ومنه تطور الإنسان الحاضر، homo sapiens، قبل حوالي 40000 سنة خلت. هنا إذن نبدأ، وتظهر هذه البداية جد قصيرة.

ماذا يميز إذن الإنسان عن الحيوان؟ إن هذا الفرق لا يتمثل في استقامة القامة، لأن ذلك قد وجد عند القردة قبل أن يتطور المخ. ليس ذلك استعمال أدوات العمل، لكن الأمر يتعلق بشيء جد جديد من نوع خاص: الوعي الذاتي للحيوان وعي كذلك، له وعي بالأشياء، يعرف ما هذا وما ذاك. لكن عندما خلق الإنسان كان له وعي آخر، يعني وعيه بذاته: يعرف أنه يوجد، وأنه مخالف للآخرين، متميز عن الطبيعة وعن الناس الآخرين. إنه يعيش ذاته بذاته، إنه على وعي بأنه يفكر وبأنه يحس ويشعر. وعلى ما نعرف، فإن مثل هذه الأشياء غير موجودة في عالم الحيوان. وهذا هو بالضبط ما يجعل من الإنسان إنسانا.

إن الإنسان في اللحظة التي ظهر فيها كإنسان كامل نوعا ما، يعيش، قبل حوالي 20000 سنة، في وضعية الحاجة إلى كل شيء. بدأ كصياد يعيش على صيد الحيوانات والتقاط الأشياء التي كان بحاجة إليها، والتي كان من الممكن أن يجدها دون فلاحة. كانت خاصية الحياة في هذه المرحلة هو الفقر والخصاصة. بعد ذلك أتت ثورة كبرى سماها المرء في بعض الأحيان الثورة الهلينية الجديدة قبل 10000 السنة. بدأ المرء فيها بصناعة الأشياء. لم يعد يعيش فقط مما يجده أو من الصيد، بل أصبح يفلح الأرض ويربي الحيوانات. أصبح ينتج أكثر مما كان في حاجة إليه باستعماله لفكره ولمهاراته وتنبئه بحاجياته.

قد يظهر لنا الفلاح حاليا عندما يكون يجني كإنسان بدائي، لكن الحقيقة هو أنه كان الأول الذي تجاوز التبعية المحضة للطبيعة التي عاش فيها، وبدأ بعقله وبكل ثروة الخيال الإنساني يسيطر على الطبيعة ويخلق لنفسه محيطات للعيش. بدأ يبرمج ويبني واستطاع أن يحصل على فائض عن الحاجة. لم يمكث طويلا فلاحا بدائيا ومربيا للحيوانات. بدأت الثقافة، وبنيت المدن، ومن تم بدأت مرحلة ثانية في تاريخ البشرية: مرحلة الفائض عن الحاجة النسبي. وأقصد بالفائض عن الحاجة النسبي، كون المرء قضى على فقر وحاجة المرحلة الأولى، لكن لم يكن هذا الفائض كافيا لكي يستفيد منه الجميع. تكونت هناك أقلية صغيرة قادت المجتمع وتطورت سيطرتها، بحيث إنها احتفظت لنفسها بالجزء الوافر من الخيرات، ولم يبق للأغلبية إلا الشيء القليل. لم يكن الفائض في متناول الجميع. بهذا المعنى الملخص نتحدث إذن عن الفائض النسبي أو عن الحاجة النسبية، اللذين ظهرا في بداية

الثورة الهلينية الجديدة، واللذين لا يزالان قائمين إلى حد الساعة.

يعتبر الفائض عن الحاجة كسكين ذي حدين. من جهة أوصل الإنسان إلى الثقافة، بفضل الأساس المادي لكي يبني الحضارة، وينظم المدن، ويغذي الفلاسفة. ومن جهة أخرى أدت الحاجة النسبية إلى استغلال مجموعة صغيرة للأغلبية الساحقة. وبدون هذه الخبرة لم يكن باستطاعة الاقتصاد والتجارة النمو. إن القيام بالحروب لا يجد جذوره، كما يؤكد على ذلك البعض، في الغريزة الإنسانية وفي غريزته الطبيعية للفناء، بل بدأت الحرب أول ما بدأت في العصر الهليني الجديد، يعني في الوقت الذي وجد فيه شيء ذا قيمة أصبح مهددا من طرف الآخر. في ذلك الوقت فقط وجه الإنسان حياته إلى اتجاه آخر، بحيث أصبحت الحرب كمؤسسة لكي يحاول الذي لا يملك ما يمتلكه الآخر السطو له عليه. ولنبرر الحرب نلتجئ إلى أسباب من نوع أننا مهددون. والحقيقة أن أسباب الحرب تكون في غالب الأحيان واضحة.

بفضل الفائض النسبي إذن، مكسب العصر الهليني الجديد، وصلنا من جهة إلى الثقافة، ومن جهة أخرى إلى الحرب واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان. ومنذ ذلك الحين يعيش الإنسان بصفة أو بأخرى في حديقة حيوانات. إذن فإن كل السيكولوجيا المؤسسة على ملاحظة الإنسان، تشبه مرحلة ملاحظة الحيوان، التي مكنت من بناء كل معارفنا عن الحيوان، مع العلم أن الحيوان الذي لوحظ هو ذاك الذي يعيش في حديقة الحيوان، وليس ذاك الذي يعيش حرا. وقد وصل المرء في السيكولوجيا على الخصوص إلى خلاصة مفادها أن الحيوانات تسلك سلوكا مغايرا في الحديقة المخصصة لها منه إذا كانت تعيش

متوحشة. لقد لاحظ Solly Zuckermann في حديقة حيوانات لندن Regents Park، بأن نوعا من القردة (Mentalpaviane) جد عدواني. اعتقد في بداية الأمر أن هذا كامن في طبيعة هذا النوع من القردة. بعد هذا أصبح معروفا من طرف باحثين آخرين لاحظوا هذا الحيوان في مجاله الطبيعي، بأن هذا القرد أقل عدوانية في محيطه الأصلي منه في حديقة الحيوان. فوضعية السجن والملل وتقليص الحرية تقود إلى عدوانية أكثر لا نلاحظها في الظروف الطبيعية المعتادة. أريد أن أوضح من وراء هذا بأن سلوك الإنسان والحيوان على حد سواء يكون مغايرا في السجن منه وهو حر.

في مطلع الثورة الصناعية الأولى وصل الإنسان إلى وضعية جديدة، وهي وضعية كانت قد بدأت في الحقيقة مع عصر النهضة وأصبحت أكثر حدة في عصرنا الراهن: تعويض الطاقة الطبيعية للحيوان والإنسان من طرف الطاقة الميكانيكية. لقد أصبحت الآلة تولد الطاقة التي كانت تولد من طرف كائنات حية. في نفس الوقت نما أمل استغلال هذه الطاقة من أجل إنتاج فائض يمكن أن يستفيد منه الجميع وليس قلة قليلة فقط.

تبع هذه الثورة الصناعية الأولى ما يسمى بالثورة الصناعية الثانية، التي تميزت، ليس فقط بتعويض الطاقة الإنسانية بالطاقة الآلية، بل بآلية التفكير الإنساني كذلك. والحديث هنا عن السبرنتيقا، عن الآلات التي تتحكم في الإنتاج وفي آلات أخرى. مع السبرنتيقا يكون بالإمكان القيام بإنتاج لا حدود له، يمكن للمرء التنبؤ معه - إلا إذا قامت حرب أو ضرب الجوع أو أي وباء الإنسانية- بالوصول إلى فائض مطلق، يمكن للإنسانية جمعاء الخروج من الحاجة والنقص للعيش في فائض عن حاجتها، يحرر الإنسان من الخوف ومن الجوع ومن تهديدات أخرى.

ما طوره المجتمع الحالي، وما لم يكن موجودا سابقا، هو أن المرء لم يعد ينتج البضائع فقط، بل الحاجات أيضا. ماذا نقصد بهذا؟ لقد كان للإنسان دائما حاجات: يريد أن يأكل ويشرب ويسكن في منازل جميلة الخ. لكن عندما ننظر اليوم من حولنا نلاحظ الأهمية الكبيرة التي أخذها الإشهار والتلفيف. وحاجيات ورغبات الإنسان لم تعد تقريبا تأتي منه بل خارجا عنه. وحتى الذي ليس في حاجة إلى أي شيء، يشعر بأنه فقير أمام هذا الركام الهائل مما يعرض من المنتجات التي قد يكون في حاجة إليها. ليس هناك أي أدنى شك أن تنجح الصناعة في صنع الحاجات التي عليها أن تلبيها، إذا كانت تريد أن تستمر، يعني إذا أرادت أن تستمر في الربح. يتأسس الاقتصاد الحالي على الإنتاج الأقصى وعلى الاستهلاك الأقصى. فما كان يعتبر بالنسبة لأجدادنا في القرن 19 ثقلا، لا يمتلك المرء ما يكفي لاقتنائه، لم يعد اليوم مشكلا. ومن ليس له حاجات اليوم، ليست له قروض، لا يشتري إلا ما هو ضروري، فإنه يصبح عنصرا مشبوها فيه سياسيا وإنسانا خاصا. من لا يمتلك في أمريكا جهاز تلفاز فإنه دون قيمة، ولا يكون ظاهريا عاديا. لكن أين يقود كل هذا؟ إن الارتفاع الصاروخي للاستهلاك سينتج نوعا من الإنسان سيكون مثالا للآخرين، وقد يكون هذا الأخير بمثابة دين جديد، إذا سأل المرء إنسانا ما حاليا كيف يتصور الجنة، فإنه سوف لن يتصور الحور كالمسلمين (من منطق رجولي)، بل إنه سوف يتصور محلا تجاريا كبيرا فيه كل شيئ، يمتلك فيه الإنسان دائما النقود ليشتري كل ما يريده -أكثر مما اشتراه جاره- . يريد الإنسان، عندما يُسْأل، حيازة المزيد. وإذا أراد المرء أن يكون الأحسن، فلابد عليه إذن أن

يمتلك أكثر من الآخرين. وإذا تساءل المرء هل سنصل في مرة من المرات إلى ما فيه الكفاية، فإن سؤاله هذا سيموت تحت أنقاض إنتاج سريع ووافر وتحت استهلاك يصعد دائما. وعلى الرغم من أن أغلبية الناس في هذا النظام الاقتصادي يمتلكون أكثر مما هم في حاجة إليه، فإنهم يشعرون بأنهم فقراء، لأنهم لا يسايرون سرعة وكثافة البضائع المصنوعة. وهكذا يقوى الملل والغيرة والحقد وأخيرا الشعور الداخلي بالضعف وعدم القدرة والدونية. إن الإنسان يحس بنفسه فقط من خلال ما يمتلكه، وليس من خلال ماهيته.

4- أزمة النظام الأبيسي

رأينا أن التوجه الاستهلاكي يخلق مناخ الفائض والملل. ولهذا المشكل علاقة وطيدة في العالم الغربي بأزمة أخرى تعم هذا العالم. في غالب الأحيان تبقى هذه الأزمة غير معروفة، لأن المرء يهتم بأعراض هذه الأزمة أكثر من اهتمامه بأسبابها. والأزمة المعنية بالأمر هنا هي أزمة البنية الاجتماعية للسلطة الأبيسية.

ماذا نقصد بهذا؟ ليسمح لي أن أذكر بمفكر كبير للقرن 19 السويسري Johann Jakob، الذي أظهر لأول مرة منهجيا وعلميا بأن المجتمع محكوم بمبدأين بنيوين مختلفين: المبدأ الأموسي والمبدأ الأبيسي. ماذا يميز هذين المبدأين عن بعضيهما؟

في المجتمع الأبيسي، كما هو معروف منذ العهد القديم (20) ومنذ الحكم الروماني، فإن الأب هو الذي يمتلك ويتحكم في الأسرة. وعندما أتحدث عن الامتلاك، فإن ذلك يجب أن يفهم في المعنى الحرفي للكلمة. ذلك أن الزوجة والأطفال كانوا في

أصل النظام الأبيسي وفي القانون الأبيسي البدائي ملكا لأب الأسرة تماما كالعبيد والماشية. كان باستطاعته عمل ما يريد بهما. وعندما يفكر المرء في شباب اليوم، فإنه يظهر لنا أننا بعيدون كل البعد عن هذا القانون. لكن لا يمكن غض النظر عن كون هذا النظام قد طبق في العالم الغربي لحوالي 4000 سنة.

في المجتمع الأموسي كان الأمر مخالفا تماما. فالشخصية المحترمة على العموم، والتي لا يمكن الحديث عندها عن الامتلاك، بل عن كونها كانت محط اهتمام دون منازع، كانت هي الأم. وبين الحب الأبيسي والحي الأموسي هناك فرق كبير. فالحب الأبوي في جوهره هو حب مشروط، لأنه موقوف على الاستجابة لشروط بعينها. وعندما أتحدث عن الحب الأبيسي، فإنني لا أعني حب الأب (س) أو الأب (ص)، لكن الأبيسي على العموم. وقد يسمي ماكس فيبر ذلك بالنموذج المثالي. فالأب يحب في الغالب الابن الذي سوف يحقق أمانيه وتطلعاته. ويصبح هذا الابن في غالب الأحيان وارث الأب. وبهذا فإننا نجد في المجتمع الأبيسي الابن المفضل - في غالب الأحيان يكون هو الابن الأكبر-. عندما نقرأ العهد القديم، فإننا نجد دائما أن هناك ابنا مفضلا، يكون مختارا ومفضلا عند الأب. إنه يعجبه لأنه يطيعه.

في النظام الأموسي نجد الأشياء في شكل آخر. فالأم تحب كل أبنائها على مستوى واحد: إنهم كلهم ودون استثناء ثمرة رحمها، وبحاجة كلهم إلى عنايتها. فإذا كانت الأم لا ترضع رضيعها إلا لأنه يعجبها ويطيعها، فإن أغلبية الصبية سيموتون. وكما نعلم، فإن الرضيع لا يعمل البتة ما تريده الأم. لو كانت الأم تتوفر على

نفس الحب الأبيسي -البيولوجي- لكان النوع الإنساني قد انقرض. إن الأم تحب الطفل لأنه ابنها. ولهذا السبب لا نجد في المجتمع الأموسي أية تراتبيه، بل نجد نفس الحب لجميع من يحتاجه من أبنائها.

إن مرجع هذا العرض السريع هو Bachofen. ففي المجتمع الأبيسي يكون المبدأ الأعلى هو النظام، القانون، المثال، المعنوي. أما في المجتمع الأموسي فإن هذا المبدأ هو العلاقة الطبيعية، وهي العلاقة التي تجمع بين الناس. وهي علاقة لا يحتاج أن يفكر فيها أو تصنع، بل إنها هنا ببساطة. إذا كان للمرء متسع من الوقت لقراءة أنتجون Antigone لصاحبها Sophokle، فإنه سيعثر باستفاضة على الكثير مما حاولنا هنا أن نعرضه. يعرض في هذا الكتاب الصراع بين المبدأ الأبيسي، الذي يمثله Kreon، وبين المبدأ الأمومي، الممثل من طرف Antigone. بالنسبة لكريون، فإن ما يأتي في قائمة اللائحة هو قانون الدولة، ومن يناقض هذا القانون يجب أن يقتل. على العكس من هذا، فإن أنتيغون تهتم بقانون الدم، الإنساني، ولا يحق لأي أحد خرق هذا القانون الأعلى. وتنتهي هذه الدراما بانهزام ما نسميه اليوم بالقانون الفاشي. ذلك أن كريون يقدم كالقائد الفاشي النموذجي الذي لا يؤمن إلا بشيء واحد: السلطة، الدولة، التي تخضع الأفراد لها.

وينتمي الدين إلى هذا الإطار. ذلك أن دين الغرب هو دين أبيسي منذ العهد القديم. يقدم الله كسلطة كبيرة يجب إطاعتها، على عكس البوذية مثلا التي لا يوجد فيها مثل هذا. وللضمير كسلطة داخلية علاقة وطيدة بالمجتمع الأبيسي. وقد تحدث فرويد في هذا الإطار عن الأنا الأعلى، ويقصد بذلك تمثل المسموح به

والممنوع الأبويين. إنني لا أقلع عن شيء ما لأن الأب أمرني أن أقلع عنه، بل لأنني تركت الأب يسكن داخلي ليأمر وينهي. وبهذا فإن مصدر هذا الأمر أو هذا النهي هو الأب.

ولقد كان فرويد على حق بوصفه للضمير في حد ذاته، لكنه لم يعر أي اهتمام لعلاقته بالمجتمع، لأننا نجد في المجتمع غير الأبيسي أشكالا أخرى للوعي، لا يمكننا ولا نريد التطرق لها الآن. نريد فقط أن نذكر، بأنه في مقابل الوعي السلطوي هناك وعي إنساني. ويتجذر هذا الوعي في الإنسان نفسه، يملي عليه ما هو جيد ومطلوب لتطوره وتقدمه. ويكون هذا الصوت في غالب الأحيان جد منخفض ولا يسمع. وسواء في السيكولوجية أو في الفيزيولوجيا، فإن هناك الكثير من الباحثين ممن أكدوا على أن هناك نوعا من الضمير الصحيح، يعني شعور بما هو خير. وإذا أنصت الإنسان إلى هذا الصوت، فإنه سوف لن يطيع أية سلطة خارجية. فصوته الشخصي سيوجهه إلى هدف معين، مودع جسديا ونفسانيا في كائنه، يقول له: هنا تمشي على صواب، وهنا تمشي في خطأ.

لابد للمرء إذن أن يأخذ كل هذا في الحسبان عندما يتحدث عن الأزمة الحالية لنظام السلطة الأبيسية، لأننا نجد أنفسنا وجها لوجه مع حالة جد خاصة. إننا نجد أنفسنا في الغرب في صيرورة حل العلاقات القديمة. ولهذا الحل، ولهذه الأزمة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك، علاقة بمشكل الفائض عن الحاجة. سأحاول أن أشرح هذا. فبقدر ما استغنى المرء، بقدر ما يكون من الضروري تدريبه على الطاعة لكي لا يثور على الطلب غير المعقول للتخلي. فالاستغناء مفروض عليه كضرورة لابد منها مفروضة من طرف

الله أو من طرف الدولة أو من طرف القانون أو ما شابه ذلك . وإذا لم تكن هناك أية طاعة ، فإنه يكون من الممكن أن يصل المرء إلى فكرة عدم الاستمرار في الاستغناء . وقد يكون هذا جد خطير على كل نظام مجتمعي يكون فيه الاستغناء والطاعة عنصرين مؤسسين ضروريين . وقد يندثر المجتمع كما هو ، إذا لم يرسخ فيه سلوك الاستغناء عن طريق ميكانيزمات نفسية وأنشطة اجتماعية . لكن عندما ينمو الفائض عن الحاجة ، فإن الحاجة تنمو كذلك إلى الاستغناء والطاعة . لماذا إذن يجب على المرء الخضوع إلى سلطة الاستغناء والطاعة مادام بإمكانه الحصول على كل ما يريده تقريبا؟ إن هذا الأمر من بين أسباب هذه الأزمة .

هناك سبب آخر يكمن في التقنيات الجديدة للإنتاج . ففي الثورة الصناعية الأولى للقرن 19 ، وكذا في بداية القرن 20، عندما كان المرء يستعمل آلات قديمة ، كان على العامل أن يطيع الأشياء على الخصوص ، لأنه كان بإمكانه إنقاذ عائلته من الجوع عن طريق العمل فقط . وعلى الرغم من أن الإكراه على الطاعة ما زال موجودا جزئيا ، فإن هناك تغيير جد كبير وقع بسرعة ، لأن تقنية الإنتاج تتحول تدريجيا من تقنية الآلة إلى تقنية السبيرتيقا . وفي هذه الأخيرة لم تعد الطاعة كما كانت معروفة في القرن 19 ضرورية . يعمل المرء اليوم في مجموعة عمل Team ، بآلات تصحح في غالب الأحيان أخطاءها بنفسها . لقد عوضت الطاعة القديمة بالنظام Diziplin ، الذي لا يتطلب أي خضوع . مع الآلة السبرتيقية يلعب المرء كما يلعب الشطرنج . قد يكون هذا مبالغا فيه ، لكن الأكيد هو أن العلاقة بالآلة قد تغيرت جذريا . وعلاقة الأمر والنهي قد قلّت ، وعوضت تدريجيا بأسلوب العمل

المشترك، وبأسلوب الاستقلال الداخلي. قد يظهر هذا الوصف جد جميل، لكنه في العمق ليس هكذا. لا أريد أن أكد بأن تقنية الإنتاج الحديثة تحرر من التغريب و تساعد على التحرر. إنني أردت فقط التنبيه إلى أن هناك تغييرات مهمة قد حدثت بالمقارنة مع السابق.

هناك في نظرنا سبب آخر لأزمة بنية السلطة الأبوية يجب البحث عنه في الثورة السياسية. فمنذ الثورة الفرنسية عشنا سلسلة من الثورات الأخرى. وحتى وإن كانت لم تحقق ما قامت من أجله، فإنها زعزعت الأوضاع القديمة ووضعت العلاقات السلطوية محل سؤال. فقد قضي رويدا رويدا على الطاعة، على الأقل الطاعة الجسدية، والطاعة العمياء، التي بدونها لم يكن بإمكان النظام الفيودالي أن يقوم. فوضع ثورة لم تنجح إلا جزئيا هو دليل على إمكانية انتصار عدم الطاعة.

في الأخلاق السلطوية ليس هناك إلا خطيئة وحيدة، ويتعلق الأمر بعدم الطاعة. وهناك فضيلة وحيدة وهي الطاعة. لا يعترف المرء بهذا الأمر بهذه الطريقة، باستثناء في الأوساط المحافظة، لكن في العمق نجد وراء كل تربية ووراء كل تربية مستمرة الاقتناع التالي: إن عدم الطاعة هي أم الكبائر.

إذا قرأنا في العهد القديم ما عمله آدم وحواء، فإننا نجد بأن ما عملاه لم يكن شرا، على العكس من ذلك: لقد أكلا من شجرة المعرفة، وفتحا بهذا الفعل لأول مرة الطريق للإنسانية لكي تصبح. لكنهما كانا غير مطيعين. وألصقت بهما منذ ذلك الوقت الخطيئة الأولى الموروثة. تعتبر عدم الطاعة في النظام الأبوي الخطيئة الأولى في واقع الأمر. لكن بسبب أزمة هذا النظام

وانهياره ووضعه موضع تساؤل، وضع مصطلح عدم الطاعة كذلك موضع تساؤل. سنرجع إلى هذا فيما بعد.

إلى جانب ثورة المواطن، وثورة العامل، تبعت ثورة مهمة أخرى، ألا وهي ثورة المرأة. وعلى الرغم من أن هذه الثورة تتجلى في بعض الأحيان في صورة غريبة، فإنها قد حققت في الواقع تقدما مدهشا. لقد كانت النساء كالأطفال رعايا وملكيات الرجال. وقد تغير الأمر، فحتى وإن كانت النساء غير متساويات مع الرجال فيما يتعلق مثلا بالأجرة، فإن وضعيتهن ووعيهن قد فرض. وكل شيء يوحي بأن ثورة النساء سوف تستمر، تماما كثورة الشباب والأطفال. سوف يعرفن حقوقهن ويدافعن عنها.

أخيرا هناك سبب آخر لأزمة السلطة الأبوية، ونعتقد بأنه السبب المهم: نلاحظ منذ منتصف هذا القرن، وخاصة الشباب منا، عدم كفاءة هذا المجتمع. لطبيعة الحال يمكن للمرء أن يقول بأننا حققنا تطورات مهمة، فقد استطاعت التقنية أن تحقق ما لم يكن في الحسبان. لكن هذا ما هو إلا وجه من وجوه المشكل. ويتمثل الوجه الآخر في كون المجتمع قد أظهر كذلك مناطق ضعفه في إيقاف حربين كبيرتين وحروب صغيرة أخرى. لقد مكن هذا المجتمع أو سمح بقيادة الإنسان إلى الانتحار. لم يحدث أبدا في التاريخ مثل هذا الهدم كيومنا هذا. وبهذا وصلنا إلى هذا العجز الذي لا يمكن لأي كمال تقني القضاء عليه.

إذا كان مجتمع الفائض على الحاجة، الذي بإمكانه تنظيم رحلات إلى القمر، عاجزاً عن إيقاف خطر القضاء على الجنس البشري، فإنه يكون بالإمكان نعته بالعاجز. إنه عاجز فيما يتعلق بالأخطار الأيكولوجية التي تحصد الحياة. هناك أيضا خطر الجوع

الرابض على أبواب الهند وأفريقيا وكل الدول غير المصنعة، ولا يعمل المرء أي شيء لإيقاف هذا اللهم بعض الخطابات. إننا نبذر/ نسرف ونعيش كما لو أننا لا نمتلك عقلا يمكنه أن يرى نتائج هذا النمط من العيش. وهذا نقص من طبيعة الحال في الكفاءة. هذا النقص الذي أضعف ثقة الجيل الشاب فينا. إننا نعتقد، على الرغم من كل ما حققه مجتمع النجاح هذا للقضاء على مشاكل أخرى، على أن هذا المجتمع قد ساهم بقدر كبير في الدفع بالمرء إلى عدم الثقة في أسس وبنيات مجتمع السلطة الأبيسية.

وعوض وصف نتائج الأزمة الآنفة الذكر، فإننا نريد أن نظهر بأن مجتمع الفائض عن الحاجة لا يوجد في المجتمع الغربي نفسه إلا جزئيا. ففي و. م. أ نفسها يعيش ما يناهز 40٪ من السكان تحت عتبة الفقر. هناك في الواقع طبقتين: طبقة تعيش في الفائض عن الحاجة، وأخرى تعيش في فقر مدقع. على عهد لينكولن Lincoln كان المرء يفرق بين الحرية والعبودية، وفي وقتنا الحاضر علينا أن نفرق بين فائض الفائض عن الحاجة والحاجة.

كل ما قلناه هنا عن الإنسان المستهلك Homo Consumens لا ينطبق على الشعوب التي تعيش في الفقر، حتى وإن كانت تحمل فكرة العيش في النعيم كالعيش في الجنة. إن الفقراء هم Komparsen في ملعب الأغنياء. وينطبق نفس الشيء على الأقليات في و. م. أ، يعني السود، وكذا على ثلثي الإنسانية التي لم تستفد أبدا من نموذج السلطة الأبوية كالهنود والصينيين والأفارقة الخ.

لكي نصل إلى التوازن الصحيح فيما يتعلق بالأغلبية السلطوية وغير السلطوية، يجب علينا أن نفهم بأن مجتمع الفائض عن

الحاجة، على الرغم من أنه هو المسيطر حاليا، يوجد وجها لوجه أما عادات وموازين قوى أخرى، سنشعر بها أكثر وأكثر في المستقبل.

5. فشل الدين

على الرغم من أن أغلبية الناس قد يجيبون في استمارة ما بأنهم يعتقدون في وجود الله، وعلى الرغم من أن عدد زوار الكنيسة قد تضاعف وعدد الملحدين قد تقلص، فإنه لا يمكن غض النظر عن كون الدين تأثر كثيرا بأزمة بنية السلطة الأبيسية. وحتى رجال الدين أنفسهم يعترفون حاليا بأن الدين، كما نعرفه، يحتضر. وتوجد هذه الصيرورة منذ قرون، وتتضاعف سرعتها كلما اقتربنا من عصرنا الحاضر.

وبما أن للدين دورين مزدوجين، فإن فشله مزدوج كذلك. فالدين له مهمة شرح الطبيعة وكذا مهمة المبادئ الأخلاقية. وليس هناك شيء يجمع هاتين الوظيفتين، لأن الطريقة التي يشرح بها الدين الطبيعة هي شيء، والمبادئ والمثل الأخلاقية لهذا الدين هي شيء آخر. في بداية الأمر لم تكن هاتان الوظيفتان متميزتين عن بعضهما لأسباب كثيرة. السبب الأول هو أن فكرة خلق العالم من طرف إله ما، يمثل أعلى ذكاء وأعلى حكمة وأعلى قوة، كانت بالفعل فرضية جيدة وعقلية. وحتى وإن كان المرء مقتنعا بفكرة الداروينية المتعلقة بتطور العالم وتطور الإنسان كنتيجة للانتقاء أو للتطور الطبيعي، فإن أطروحة الخلق من طرف الله تظهر أسهل وأبسط لكي تفهم وتقبل من أطروحة كون الإنسان كما هو الآن هو حصيلة مبادئ تطور دامت مئات آلاف

السنين، إما عن طريق الصدفة أو على الأقل عن طريق الانتقاء الطبيعي. إن شرح داروين للطبيعة يظهر منطقيا، لكنه يبقى شرحا غريبا عن وعينا. منذ أقدم العصور، بما في ذلك العصور البدائية، كان الإنسان في حاجة دائمة لكي يكون فكرة عن العالم وعن تأسيسه. والتصور التالي مثلا هو من بين أقدم التصورات: قتل شخص ما وسال دمه، ومن هذا الدم صنع الناس، ليس كل الناس، لكن الشجعان منهم فقط. فالجبناء والنساء لم يصنعوا من هذا الدم، لكن من لحم ساقي المقتول. وهذه هي نظرية Konrad Lorenz، التي تقول بأن غريزة القتل وحب الدم مغروسة في الإنسان. والذين يؤمنون بهذه الخرافة استثنوا لحسن الحظ النساء من غريزة حب الدم، لكنهم صنفوهما مع الجبناء، ولم يتغير هذا كثيرا إلى يومنا هذا. فطبقا للأحكام المسبقة للمجتمع الأبيسي، فإن النساء لا يمتلكن إلا القليل من الضمير وهن جبانات وغير واقعيات بالمقارنة مع الرجال. لكن من المعروف أن كل هذا خطأ. ففي الكثير من الأحيان يكون من الممكن قلب هذه الصفات. أغلبية النساء يعرفن جبن الرجل عندما يكون مريضا. إنه يشتكي ويشكو أكثر من المرأة. لكن المرء لا يقول هذا محافظة على الخرافة. ويمكن قول نفس الشيء عن ادعاءات الميز العنصري: لما يقوله البيض عن السود نفس المستوى تقريبا لما يقوله الرجال عن النساء. وحتى فرويد يؤكد بأن للنساء ضميراً أقل من الرجال. لكن من الصعب تصور كيف هو ضعف ضمير الرجال. من طبيعة الحال لا يعدو أن يكون هذا إلا ادعاءات حول نقص العدو، ونجد هذه الادعاءات في الأماكن التي تكون فيها فرقة تسود فرقة أخرى، ويكون من الضروري المحافظة على الوعي الذاتي للفرقة السائدة، لكي لا تحدث هناك أية انتفاضة.

كانت هذه ملاحظة عابرة لوظيفة من وظائف الدين، والمتمثلة في شرح الطبيعة. وقام الدين بهذه الوظيفة بطريقة جيدة إلى أن اكتشف داروين بأنه بالإمكان شرح أصل العالم وأصل الإنسان عقليا وعلميا دون الرجوع إلى فكرة الخالق، يعني عن طريق قانون التطور.

لقد قلنا بأن الجاهل لا يمكنه تصور هذا الخلق دون إلاه، لكن أصل العالم لم يعد سرا بالنسبة للعلم. من وجهة نظر نظرية الارتقاء، فإن الله قد أصبح فرضية بداية العمل. وحكاية خلق العالم والإنسان في صورة خيال وشعر ورمز، تعبر عن شيء ما، لكنها لا تمثل أية حقيقة علمية. وبما أن الناس لم يعودوا يعيرون أي اهتمام خاص لشرح الطبيعة من طرف الدين، فإن هذا الأخير قد خسر رجلا. لم يبق له إلا وظيفة تقديم مسلمات أخلاقية. أحب الآخر وأحب الأجانب، يقول العهد القديم. أحب عدوك يقول العهد الجديد. اعط الفقير قميصك الوحيد. إذا أخذنا مثل هذه النصائح محل الجد، كيف يمكن للمرء إذن أن يكون ناجحا في المجتمع العصري؟ يصبح المرء أبلها، وعوض أن يصعد سلم النجاح، فإنه سينزله. إن أخلاق الإنجيل تعلم، لكنها لا تطبق. وبهذه الطريقة، فإننا نوجد على سكتين. ينادى بتفضيل الآخر على النفس وحبه، وفي نفس الوقت تقف ضرورة النجاح حجرة عثرة في طريق تطبيق هذه الفضيلة. لابد أن أضيف ولو في عجالة أن المرء، على ما أعتقد، يمكنه أن يكون مسيحيا أو يهوديا تقيا، يعني إنسانا جيدا، دون أن يموت جوعا في هذا المجتمع.

لكي لا يضحي المرء بنفسه من أجل الوظيفة، فإنه يكون في حاجة إلى كفاءة وشجاعة خاصين لكي يعيش في الحقيقة وفي

الحب . على كل فإن الأخلاق المسيحية أو اليهودية لا يمكنها بالفعل أن تتطابق مع أخلاق النجاح، وعدم اللامبالاة بالآخرين، والمصالح الخاصة، وعدم قسمة الخيرات. لسنا في حاجة إلى الحديث عن هذا الأمر طويلا، لأن كل واحد منا يعرف هذا عندما يطرح هذا السؤال. وبغض النظر عن هذا، فإن ثنائية هذه السكة قد حللت وانتقدت بما فيه الكفاية. بخلاصة: عن طريق الأخلاق المطبقة في الرأسمالية الحديثة، قطع المرء الرجل الآخر للدين. لم يعد بإمكان الدين أن يبقى ممثل القيم الأخلاقية، لأن المرء لم يعد يثق به لتأدية هذه الوظيفة. هكذا إذن فإن الله قد ترك مكانه كخالق للعالم وكمصدر للقيم الأخلاقية، محبة في الآخر من أجل القضاء على الطمع. لكن الملاحظ هو أنه يظهر بأن الإنسان غير قادر على العيش دون دين، ولا يريد العيش دونه. إنه لا يعيش من الخبز فقط. لابد من رؤية مستقبلية، من إيمان، يوقظان اهتمامه ويضعانه موضع أعلى من موضع الحيوان. ولم يعد السقوط مرة ثانية في الوثنية مهما في الوقت الحاضر. ونعتقد بأنه بإمكاننا القول إن قرننا الحالي قد طور دينا جديدا، وهو ما نسميه «دين التقنية».

لدين التقنية مظهران. المظهر الأول هو النعيم، يعني تمثل تحقيق الرغبات دون حواجز ودون حدود. وهذه الرغبات تنتج بطريقة مستمرة، ليست لها نهاية، ينتظر الإنسان كرضيع بفم مفتوح لكي يغذى أكثر فأكثر. والجنة هو معاش اللذة المطلقة والفائض عن الحاجة الخاطىء، الذي يقود إلى الخمول والكسل. وهدف التقنية هو إقصاء التعب.

والمظهر الآخر لهذا الدين معقد. منذ عصر النهضة ركز

الإنسان فكره على دراسة أسرار الطبيعة لكي يتحكم فيها. والهدف العميق لم يكن فقط ملاحظة الطبيعة، بل إنتاجها كذلك. وإذا دفعنا التحليل إلى أقصى الحدود، فإنه بالإمكان القول (على الرغم من أنه من الصعب إيجاد تعبير دقيق): إن الإنسان كان يريد أن يصبح إلاها. ما كان بإمكان الله أن يعمله، كان بإمكان الإنسان أن يعمله كذلك. أعتقد بأن ما شاهدناه في اللحظة التي وطأ فيها رائد الفضاء بحذائه القمر كانت عبارة عن ممارسة دينية-وثنية، وخطوة أولى في طريق أن يصبح الإنسان إلاها، ويتجاوز حدوده. وحتى في الجرائد المسيحية كان بإمكان المرء أن يقرأ تعاليق مثل: إن هذا هو أكبر حدث بعد خلق العالم. لكن هذا الاستنتاج كان نوعا ما متهورا من طرف المسيحيين الذين اعتبروا خطوة الإنسان لكي يصبح إلاها أهم خطوة بعد الخلق. لكن المرء نسي كل هذا في هذه اللحظة، عندما يعيش ذاتيته كحقيقة، تتمثل في كون الإنسان تجاوز قوانين حدوده، وتخلص من متاعب الدنيا لكي يستمر على درب اللانهائي.

قد يكون بعض ما قلناه مبالغا فيه، لكننا نريد أن ننبه إلى بعض ما يختبأ وراء السطح. أيمكن اعتبار هذا الاندهاش الهستيري لاكتشاف القمر بمثابة تصفيق لنجاح العلم؟ أبدا. هناك اكتشافات علمية أكثر أهمية لا يمكن للمرء عن طريقها استدراج قطة ما وراء الفرن. هناك شيء جديد قد حصل، شكل جديد لعبادة الأصنام وجد طريقه، متمثل في كون التقنية قد أصبحت الإله الجديد، أو كون الإنسان نفسه قد أصبح إلها، وربابنة الفضاء الفقهاء الأجلاء لهذا الدين. ولهذا السبب أصبحوا محط إعجاب. لكن لا يجب الإعتراف بكل هذا، لأن المرء مسيحي أو يهودي أو على الأقل

غير وثني. ولهذا السبب على المرء أن يغطي الأمور ويعقلنها. لكن وراء كل هذا، على ما أعتقد، دين جديد، ستصبح فيه التقنية الجدة التي تغذي كل أطفالها وتلبي كل رغباتهم. إننا نعرف أن كل هذا جد معقد، لأن حبال الأسباب التي أدت إلى هذا الدين الجديد تختلط. وفي كل الأحوال فإن هذا الدين الجديد لم يأت بأي مبادىء أخلاقية، باستثناء مبدأ واحد، يكمن في كون المرء مجبر على عمل كل ما هو ممكن تقنيا. فالإمكانية التقنية أصبحت مسؤولية أخلاقية، ومصدرا لهذه الأخيرة نفسها.

قال دوستويفيسكي مرة: إذا غاب الله، فإن كل شيء مباح إذن. فأخلاق ذلك الوقت، كما كان يعتقد، كانت مؤسسة على الإعتراف بالله. وإذا لم يعد الإنسان يعتقد في الله، فإن هذا الأخير لم يعد هو الحقيقة التي تؤثر في فكر وسلوك هذا الإنسان، وبالتالي سيكون من الضروري طرح سؤال ما إذا كان الإنسان قد أصبح دون أخلاق، ودون توجيه من طرف المبادئ الأخلاقية. في الواقع لابد من أخذ هذا السؤال محل الجد. إذا كان المرء متشائما، فأنه سيعتقد بأننا قد وصلنا بالفعل إلى هذه المرحلة، وبأن أخلاقنا تنقص باستمرار. هناك إذن فروق كبيرة بين البارحة واليوم. على سبيل المثال في حرب 1914 كان المرء قد أخذ بعين الإعتبار قاعدتين عالميتين: عدم قتل المدنيين وعدم التعذيب. أما اليوم، فإن قتل المدنيين قد أصبح شيئا مفروغا منه، لأن الإعتراف بحدود استعمال العنف لم يعد معترفا به. وحتى التقنية لم تعد تسمح بمثل هذا التمييز. إنها تقتل عن طريق ضغط الزر. وبما أن المرء لا يرى العدو، فإن الشعور بألم الآخر وبعذابه لا يحدث. إضافة إلى هذا، فإن المرء يعذب على الرغم من أنه لا يعترف

بذلك . إن التعذيب هي وسيلة واسعة الإنتشار للحصول على المعلومات . وسوف نندهش إذا علمنا عدد الدول التي تستعمل التعذيب .

قد لا يكون صحيحا أن الوحشية تنمو ، لكن لا يمكن نفي كون الإنسانية تضعف ومعها الروادع الأخلاقية . وقد سبب هذا تغييرا كبيرا في العالم . من جهة لابد أن نعترف بأن هناك مبادئ أخلاقية جديدة -عند الجيل الشاب- ، فرضت نفسها كالدفاع عن السلام وعن الحياة ضد الهدم وضد الحرب . ولا يمكن اعتبار هذا كلاما فقط ، بل إنه وعي قيم وأهداف من طرف الجيل الشاب (وغير الشاب) . هناك الملايين من الناس انتبهوا إلى الطرق المتعددة للقضاء على الحياة ، والتزموا بالوقوف في وجه الحروب غير الإنسانية ، والتي لا تندلع للمحافظة على النفس حتى . هناك أخلاق جديدة للحب ، ضد الإستهلاك ، بدأت تظهر ، تتبعثر هنا وهناك ، لكنها تعبر بوضوح عن رفضها للأشكال الفارغة . ونمد أمثلة لهذه الأخلاق الجديدة في التضحية بالنفس في الميدان السياسي : في الكثير من حروب التحرير ومحاولة الإستقلال الذاتي .

هناك إذن تطورات مشجعة في الطريق . وبسببها أعتقد بأن دوستويفسكي لم يكن على صواب عندما ربط المبادئ الأخلاقية بالإعتقاد في الله . والبوذية هي دليل قاطع على أن هناك في بعض الثقافات مبادئ أخلاقية دون أساس أبيسي سلطوي . إنها ترتكز على أسس إنسانية . بتعبير آخر ، إن الإنسان لا يمكنه أن يعيش بتاتا ، سيتيه ويصبح تعيسا ، إذا لم يكن يعرف مبدأ يمكن أن يقوده ومحيطه . وهذا المبدأ لا يمكن أن يفرض عليه من الخارج ، بل لابد

أن يجده في نفسه. لا يمكن أن نستفيض في هذا المشكل. ما كنا نريد أن نوضحه، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في البداية، هو أن هناك حاجة عميقة عند الإنسان لكي يسلك أخلاقيا. فعن طريق اللأ أخلاق يفقد انسجامه وتوازنه. ومن اللا أخلاق إقناعه -تحت ذريعة الأخلاق- أن يقتل وأن يطيع وأن لا يأخذ بعين الإعتبار إلا مصلحته، وبأن الإحساس بألم الآخر سوف لن يؤدي به إلا إلى الضيق الخ. وإذا أصبحت هذه الأصوات عالية، فإنه من الممكن أن يسمع ذاك الصوت الإنساني الداخلي الذي يقبع فينا. وبالتالي فإنه من الممكن أن يستنتج المرء، بأن كل شيء مباح إذا مات الله.

6. تناقض حدود التطور الإنساني

يلعب الجيل الشاب دورا مهما في الأزمة الأخلاقية التي نعيشها حاليا. ونقصد هنا خاصة الراديكاليين من بين الراشدين الشباب -على الرغم من أننا لا نعني بالراديكاليين أولائك الذين يقدمون أنفسهم هكذا، ويعتقدون أنهم هكذا، بحيث يبررون كل أصناف العنف باسم الراديكالية، ذلك أن أغلبية الذين يعتبرون أنفسهم راديكاليين هم أطفال عوض أن يكونوا راديكاليين- وقد تحدث لينين عن هذا في عرضه حول أمراض الأطفال للشيوعية.

هناك دوائر كبيرة أخرى من الشباب، ليسوا راديكاليين في كل متطلباتهم السياسية، لكنهم هكذا في نقطة لها علاقة وطيدة مع ما سبق وأن قلناه، يعني رفض الأخلاق السلطوية. وهذه المقاومة لا تخص فقط السلطة (فقد كان المرء في كل الثورات ضد هذه السلطة)، لكن تهم أيضا المبدأ الأبيسي والأخلاق المؤسسة عليه وفي حضنه، والمتمثلة في كون الطاعة فضيلة والعصيان شر. وقد

نتج عن هذه الأخلاق ظاهرة من الأهمية بمكان: يكتنف الإنسان بالشعور بالذنب عندما لا يعمل ما يجب عليه عمله. فعوض أن يعمل الإنسان ما يجب عليه عمله طبقا لما في قلبه وشعوره وإنسانيته، فإنه يخضع لنظام سلطوي، يؤدي فيه أخطاءه بالشعور بالذنب. وأعتقد أن التحرر من الشعور بالذنب الذي تنتجه الأخلاق السلطوية هو خاصية الجزء الكبير من الجيل الشاب. وهذا التحرر هو الذي يساهم في جعل هؤلاء الشباب -ونحن من بينهم- لطفاء. لقد تجاوزوا بصفة عامة الشعور بالذن الذي أثر في إنسانية التقليد المسيحي-اليهودي منذ قرنين، والذي حدد الخوف من الإبتعاد عن المعايير الأخلاقية، دون أن يصبحوا دون أخلاق. على العكس من هذا فإنهم في طريق البحث عن مبادئ جديدة للأخلاق.

لابد أن نشير هنا إلى تمظهر جديد آخر، والذي نعتبره خاصية أخرى للجيل الشاب: الصدق الجديد. لم يعد المرء، كما كان ذلك في السابق مع الأجيال السابقة، يشعر بالحاجة للإعتذار، وللعقلنة، ولتسمية الأشياء بغير مسمياتها. تستعمل في بعض الأحيان عبارات ليست لها أهمية إستيقية خاصة تصدم أولائك الذين ربوا في أحضان Konventionen تقليدية. وما هو حاسم هو ظهور صدق مغاير تماما لعدم الصدق التقليدي، الذي كان يمارس قصدا، والذي كان عاديا في الأسس الشعبية الأبيسية، بحيث كان المرء فيها يخبأ كل ما كان يشعر فيه بالذنب، ويظهر على الدوام وكأنه متخلق. لن يكون من المسموح به، إذا كان من غيرالإنساني أن يظهر المرء ذلك، لأنه سيجد نفسه على حدود عدم الطاعة. وفقط عندما يتعرف ويعترف الإنسان بأن حقيقة الإنسان تحتوي

على الخير وعلى الشر في آن واحد، فإنه يصبح إنسانا. فعيش الجزء الخير فينا مرهون بالثورة ضد الجزء السلبي فينا.

نعتقد أن سيغموند فرويد قد ساهم بكثير في هذا الصدق الجديد. لقد فتح بعدا جديدا للصدق. كان كافيا قبله أن يظهر المرء حسن نيته. ومنذ أن اكتشف فرويد اللاوعي ودرسه بطريقة منظمة، لم تعد حسن النية كافية، لأن الأهمية أصبحت الآن مركزة على الدوافع اللاواعية من وراء حسن النية. وهكذا توصل المرء إلى نتيجة مفادها أنه ليس هناك أي فرق تقريبا بين ما إذا كان المرء واعيا بنواياه السيئة وما إذا كان فقط ذكيا بما فيه الكفاية لكي يعقلنها، ليخفيها عن نفسه وعن الآخرين. لكن قد يحقق إنسان ما بنياته السيئة شيئا من الصدق بالمقارنة مع ذاك الذي يكتم هذه النيات عن وعيه، ويحققها بطريقة ناجحة، لأنه يريد أن يعلبها في أفكار جيدة وحسنة.

منذ فرويد لم يعد المرء مسؤولا فقط عن وعيه وعن نياته الحسنة، لكن أيضا عن لاوعيه. إن سلوكه وليس كلماته فقط هي التي تتحدث عنه. قد يكون من الممكن أن كلماته لن تعني أي شيء. وفرويد ليس وحده الوحيد المسؤول، بل إن التجربة تظهر لنا أن الإنسان كذاب، وأن الحروب اندلعت وماتت الملايين، وتطوع آخرون إلى الموت من أجل شرف أعلى، وحدث كل هذا من جراء الكذب والكلمات من طبيعة الحال. وهذا ما يقودنا اليوم إلى عدم الإهتمام كثيرا بما يقوله الآخرون. إن الكلمات والأفكار بخسة الثمن ومن الممكن تعليبها بطريقة مختلفة. لهذا السبب فإن الشباب لا يتساءلون: ماذا تقصد بهذا؟، لكنهم يضيفون: كيف سلكت؟ وما هي دوافعك؟.

نعتقد أن تأثير فرويد على إدخال هذا الصدق الجيد أهم بالنسبة لتطور العالم الغربي من اكتشافه للثورة الجنسية. هذه الأخيرة كان بإمكانها أن تقوم دون فرويد في المجتمع الذي يوجهه الإستهلاك. لا يمكن للمرء أن يحرم الإنسان من اشتهاء كل ما يلبي رغباته، وفي نفس الوقت حرمانه من الجنس. وقد أصبح الجنس في المجتمع الإستهلاكي مادة استهلاكية، تعيش منها صناعات مختلفة، وتنفق عليها أموال كثيرة من أجل تطوير الممارسة الجنسية. ويعتبر هذا بالمقارنة مع الماضي تغييرا، لكنه ليس ثورة ويمكن إرجاعها لفرويد.

ما قد يكون إيجابيا هي الواقعة المتمثلة في كون الجنس لم يعد مرتبطا عند الجيل الشاب بالشعور بالذنب. عندما تعتبر الأخلاق السلطوية الشهوة الجنسية كخطيئة، فإنها تنتج إذن مصدرا غير نافد للشعور بالذنب. ويمكن للمرء أن يقول إن كل واحد منا يمتلك منذ سن الثالثة حسابا بنكيا كبيرا من الشعور بالذنب. للإنسان كما هو شهوة جنسية بالضرورة، يشعر عندما تطفو على السطح بالذنب. وتقييد الجنس يقود إلى الشعور بالذنب، الذي يستغله المرء لتأسيس والحفاظ عليها الأخلاق السلطوية.

يظهر أن الجيل الشاب (وإلى حدود ما الجيل الأكبر سنا كذلك) قد تجاوز هذا النوع من الشعور بالذنب، وهذا تطور جوهري. لكن لابد أن نضيف بأن كل ما يلمع ليس ذهبا. عن طريق توجه الإستهلاك أصبح الجنس في الواقع بمثابة حجاب يغطي النقص في الحياة الحميمية، ذلك أن المرء يعوض التغريب الإنساني عن طريق القرب الفيزيقي. لكن الحميمية الجسدية لا يمكن أن تعوض بحال من الأحوال الحميمية النفسية. هذه الأخيرة التي تلحم بين

شخصين، قد تكون لها علاقة بالحميمية الجسدية، لكنها لا تشبهها بتاتا. وعندما تغيب الحميمية النفسية عند شخص ما، يكون من المحتمل بكثير أن تعوض عنده بالحميمية الفيزيقية.

قلت أن الجيل الجديد لا يعترف بالنظام الأبيسي ولا بمجتمع الإستهلاك. لكن الشباب يسقط في نوع جديد من الإستهلاك، كما يمكن أن يلاحظ ذلك في تعاملهم مع المخدرات. فالوالدين يشترون السيارات والملابس الفاخرة والحلي، والأطفال يتناولون المخدرات. ولاستعمال المخدرات الذي يقود إلى الإدمان أسباب كثيرة لابد من التفكير في عواقبها، وهو تعبير عن خمول وكسل الإنسان المستهلك، الذي ينتقده الأطفال عند أبائهم، لكنهم يعيشونه بطرقهم الخاصة. مثل هؤلاء الشباب ينتمون إلى أولائك الذين ينتظرون دائما شيئا ما يأتي من الخارج: مفعول المخدر، مفعول الجنس، مفعول الموسيقى التي تنومهم ميغناطيسيا وتحملهم إلى عوالم أخرى. ومثل هذه الموسيقى لا تطور حيويتهم، لكنها تقودهم إلى حالة من العربدة، إلى حالة ناتجة عن المخدرات، ينسى فيها الإنسان بأنه خامل. إن الإنسان الحيوي لا ينسى حالته، لكنه يبقى ويصبح باستمرار هو نفسه. يصبح أرشد ومستيقظا وينمو. والإنسان الخامل هو، وكما قلنا، الرضيع الأزلي، لا يهمه ما يستهلكه، بل ينتظر الرضاعة بفم مفتوحة. بعد ذلك يشبع دون أن يكون مضطرا لعمل شيء ما، لا تستيقظ أية قوة نفسية فيه، وفي نهاية المطاف يصبح متعبا وميالا للنوم. والنوم الذي يعتريه يكون في الغالب تخديار وإرهاقا ناتجا عن السأم أكثر منه تجديدا صحيا للطاقة. قد يظهر كل هذا مبالغة، لكن الكثير من الناس يعرفون عن طريق التجربة ما قلناه. ووسائل الإعلام المنتجة

للحاجيات تقيسنا طبقا لاعتقادها أن ثقافتنا قد فرضت نفسها اليوم عن طريق الإستهلاك.

يجب علينا أن نتساءل هل بإمكاننا في الحقيقة في مجتمع السوء، في مجتمع فائض الفائض، والذي لا يستطيع الإنسان أن يهضمه لأنه لا يساهم في وجوده الحيوي، أن ننجح مبدئيا على الأقل في الوصول إلى الفائض عن الحاجة الجيد؟ هل يمكن أن نستعمل فائض الإنتاج، الذي يمكننا أن ننتجه تقنيا لصالح الإنسان ولصالح تطوره؟ لابد أن يكون من الممكن، عندما نمعن النظر، أن نرفع الحاجات ونلبيها التي تساهم في حيوية ونشاط وحرية الإنسان، لكي لا يبقى وجوده عرضة للأهواء وللنزوات، بل لكي يصبح هو نفسه نشيطا يهمه تطوير قواه لكي يحيى هو والآخرون في حيوية وغنى. ويشترط هذا من طبيعة الحال تنظيم الوقت الثالث ووقت العمل بطريقة أخرى. فوقتنا الثالث في معظم الأحيان هو وقت كسل فقط، يوحي لنا بوهم القوة عندما نضغط على زر التلفاز لندخل العالم إلى المنزل، أو عندما نخلط فحولتنا مع قوة محرك السيارة عندما نمتطي هذه الأخيرة. والوقت الثالث الحقيقي هو ذاك الوقت الذي نشجع فيه الحاجات التي تجد جذورها في الإنسان وتؤدي إلى تطوير نشاطه الحيوي. لذلك لابد أن يكف العمل عن ملله ورتابته. ومشكل تنظيم العمل هو: كيف يمكن لعمل أن يصبح مهما ومشوقا وحيويا؟

وهنا يطرح السؤال الجوهري المتعلق بهدف عملنا. هل هدفنا هو تشجيع الإنتاج والإستهلاك؟ أو هل الهدف هو تطوير وإنماء الإنسان؟ في غالب الأحيان يقال بأنه لا يمكن تمييز الواحد عن الآخر: ما هو جيد للصناعة هو جيد للإنسان، والعكس صحيح. يظهر هذا كفكرة جميلة لانسجام لابد منه، لكنه يخفي في الواقع

يظهر هذا كفكرة جميلة لانسجام لابد منه، لكنه يخفي في الواقع مكرا كبيرا. ليس من الصعب البرهنة على أن ما كان جيدا للصناعة، لم يكن كذلك للإنسان. وهذه هي مشكلتنا حاليا. إذا استمر الأمر على ما هو عليه، فإن التقدم سيكون على حساب الإنسان. ولهذا السبب فإنه من اللازم علينا أن نحسم. إذا رجعنا إلى التوراة، فإنه سيكون علينا أن نختار بين الله وبين القيصر. يبدو هذا مأساويا، لكن عندما يتحدث المرء بمعقولية عن الحياة، فإن ذلك يصبح مأساويا بالفعل. ما يهمنا في هذه اللحظة ليس هو مشكل الحياة والموت، لكن تنامي مشكل الموت الوجودي ومشكل الحياة الوجودية في الحياة. والمهم هو أن يصبح المرء مليئا بالحياة. وفي غالب الأحيان يخطأ الناس في هذا. إنهم يعيشون كما لو أنهم كفوا عن الحياة أو أنهم لم يبدؤوا الحياة.

يقول المثل الشعبي فيما معناه إن كل واحد ابتداء من الأربعين مسؤول بنفسه عن وجهه. والمقصود من هذا أن قصة حياة كل واحد تظهر ما إذا كان المرء يعيش بطريقة صحيحة أو بطريقة سيئة (ليس من منطق أخلاقي، بل بالنظر إلى خصوصية الحياة التي نحياها مرة واحدة). وكل خطب الموت الجميلة لا يمكنها أن تحجب السؤال الحقيقي التالي، والذي لا يمكننا إغفاله: هل كنا أحياء أو هل نحن أحياء؟ هل نعيش أو نعاش؟ نوافق في الرأي مفكرين مثل ماركس وDisraeli، الذين كانوا مقتنعين بأن الترف والبذخ ليسا أقل سوء من الفقر. ونقصد بالترف هنا فائض الفائض عن الحاجة. وعندما لا يكون هذا الأخير هو هدفنا، فإنه يكون من الواضح أن عاداتنا، الفكرية والحياتية، لابد أن تتغير جذريا. ونحن واعون بالصعوبات غير العادية التي توجد في مثل هذه التغيرات للسلوك.

أعتقد على كل حال أن هذه التغيرات لا يمكن أن تقود، بسبب المعاش العميق للإنسان، إلا إلى اختيار المرء للمزيد من الحياة ورفض الملل، واختيار الإمكانيات التي تجعله حيويا وعفويا وحرا. والكثير من الشعوب، وخاصة غير المتطورة تقنيا، تحلم بأنه بإمكانها أن تصبح سعيدة لو كانت تمتلك كل ما يمتلكه الأمريكيون. من جهة، فإن عدد الذين انتبهوا في أمريكا إلى أن لين العيش العصري لا يجعلهم سعداء، بل خمولين وغير شخصانيين ويمكن التلاعب بهم، يتكاثر يوميا. وليس من باب الصدف أن أغلبية الشباب المتمرد تنتمي في غالبيتها إلى الطبقات المتوسطة والعليا، التي تمثل فائض الفائض عن الحاجة. وحلم الشعوب السالف الذكر لا يقود إلى السعادة إلا في الخيال والتصور وليس في عمق النفس.

يظهر لي من الأهمية بمكان توضيح مبدأ سنهتم به كثيرا عند حديثنا عن الحياة: إن المرء يمر بمحاذاة الحياة عندما يتبع أهدافا متناقضة. نعرف من طبيعة الحال مثال كلب بافلوف. فقد دربه المرء على الإحساس بالجوع عندما يرى دوائر، وتجنب الأكل عندما يرى هلالج. في الأخير قرب المرء الدائرة والإهليلج، بحيث أن الكلب لم يعد يفرق بينهما، وقد أصبح في هذا الصراع مريضا وأظهر الأعراض الكلاسيكية للعصاب، أصبح خوافا، مضطربا وعدم واثق من نفسه.

بنفس الطريقة، فإن المرء يصبح مريضا عندما يتبع أهدافا متناقضة. إنه يفقد توازنه ووعيه الذاتي وقوى تمييزه. لا يعود يعرف ما هو جيد له. لهذا لابد أن نتساءل قبل كل شيء عما هي هذه الأهداف المتصارعة التي نتبع. لماذا لا تتحمل بعضها البعض؟

ما هي الخسائر التي يتسبب فيها هذا الصراع فينا؟ لا يمكن الجواب على هذه الأسئلة بالخطب ولا بالدعايات التي يتخيلها الناس. من الضروري على كل واحد منا أن يمعن النظر في التالي: أنك لا تحيى إلا وقتا قصيرا - من أنت وماذا تريد؟ عندما ننبه إلى النتائج الوخيمة للفائض عن الحاجة، الذي ينتج في آخر المطاف الفقر والغبن، فإننا نضغط على زر الغنى القابع فينا. ومستقبل الإنسان مرهون باختياره للفائض عن الحاجة الجيد أو للفائض عن الحاجة السيء.



النتائج النفسية للتصنيع

هناك اعتقاد شاسع على وجه هذه الأرض مفاده أنه بالإمكان تلبية كل الحاجيات الإنسانية الضرورية إذا حسنت أكثر الطرق الصناعية للإنتاج، في البدء في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وبعد ذلك في أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا.

وترتفع اليوم أصوات كثيرة ضد هذا النوع من التفاؤل الساذج. لماذا، يتساءل بعض المراقبين، نجد في الدول الأكثر تصنعا ورفاهية كسويسرا والسويد أعلى نسب الإنتحار والكثير من المدمنين على الكحول؟ لماذا يقدم أغنى بلد في العالم، الولايات المتحدة الأمريكية، الواقعة المتمثلة في كونه البلد الذي يعيش عصر الخوف؟ لماذا تتبادل الدول الأكثر تقدما اقتصاديا التهديدات لمسح الواحد الآخر، وتهدد نفسها كذلك بالإنتحار؟ هل مرجع هذا إلى كون التصنيع لم يحقق بعد أهدافه؟ إن مثال السويد يدحض مثل هذه الفرضيات. أو ألا يمكن للمرء أن يفترض بأن هناك في التصنيع، كما تطور في الولايات المتحدة الأمريكية وفي الإتحاد السوفياتي، شيئا أساسيا خاطئا؟

أين نحن اليوم؟ إن خطر حرب تقضي على كل شيء يهدد الإنسانية. ولا يمكن اعتبار هذا الخطر قد مر عن طريق محاولات الحكومات تجنب هذه الحرب. وحتى وإن كان الساسة يتمتعون

بصحة عقلية كافية لتجنب مثل هذه الحرب، فإن حالة الناس اليوم لا تزال بعيدة من أجل تحقيق آمال القرن 16 و17 و18.

إن طبع الإنسان متأثر بالعالم الذي خلقه بيده. فالطبع المجتمعي لمواطنة القرنيين 18 و19 ملامح استغلالية وامتلاكية. فالرغبة في استغلال الآخرين وادخار ما يكتسب، لكي يكون من الإمكان الحصول عن طريقه على المزيد من الربح، كان محددا لطبع المواطن. وفي القرن 20 أظهر منحنى الطبع كمية مهمة من الكمون وتمثل لقيم السوق.

وبدون شك، فإن الإنسان المعاصر هو في غالب الأحيان خامل في أوقات فراغه. إنه مستهلك أبدي: إنه يتناول: مشروبات، أكل، سجائر، مقروءات، زيارات، كتب، أفلام. كل شيء يستهلك، يبلع. والعالم حقل كبير لشهواته: قارورة كبيرة، تفاحة كبيرة، صدر كبير. إن الإنسان قد أصبح رضيعا ينتظر على الدوام، ويخيب ضنه على الدوام.

وعندما لا يكون الإنسان الحديث مشغولا بالإستهلاك، فإنه يمارس التجارة. ففي نظامنا الإقتصادي يدور كل شيء حول وظيفة السوق. وهذا الأخير يحدد قيمة كل البضائع وينظم الحصة التي لكل واحد في المنتوج الإجتماعي الخام. إن الأنشطة الإقتصادية لإنسان اليوم لم تعد محكومة، كما كان في السابق، من طرف العنف والتراث ولا من طرف أعمال الإحتيال والزندقة. كل واحد حر في إنتاج وتسويق ما يريده. ويوم السوق هو يوم الحكم على نجاح الإجتهاد الشخصي. وفي السوق لا نجد فقط بيع وشراء البضائع. فالعمل في حد ذاته أصبح بضاعة، تباع بنفس شروط المنافسة في سوق العمل. فالسوق الإقتصادي قد

تعدى بكثير الميدان التجاري للبضائع وللعمل. فقد تحول الإنسان نفسه إلى بضاعة، يعيش حياته كرأس مال يجب استثماره من أجل الربح. إذا نجح في ذلك، ستكون حياته ناجحة، وإذا لم ينجح في ذلك فإنه سيكون راسبا. تتأسس قيمته على إمكانية بيعه، وليس على قيمته الإنسانية: العقل، الحب، أو على قيمته الفنية. فقيمة حياته الذاتية موقوفة على عوامل خارجية: نجاحه وحكم الآخرين عليه. ولهذا السبب فإنه تابع للآخرين، ولا يمكنه أن يحس بالثقة في نفسه إلا إذا سلك سلوكا لائقا مع الآخرين، ولا يبتعد عن القطيع بأكثر من نصف متر.

ما يحدد طبع الإنسان المعاصر ليس فقط السوق وحده. هناك عامل آخر له علاقة وطيدة بوظيفة السوق ألا وهو طريقة الإنتاج الصناعي. فالمقاولون يكبرون يوما بعد يوم، وعدد موظفي وعمال الشركات ينمو يوما بعد يوم كذلك. ملاك المصانع ومدراء الإنتاج ليسوا نفس الأشخاص. فالشركات العظمى تدار من طرف موظفين كبار، همهم الأساسي هو أن يشتغل وينمو المعمل دون مشاكل.

ما هو نوع الإنسان الذي يحتاجه مجتمعنا لكي يعمل دون مشاكل؟ إنه في حاجة إلى أناس يكون بإمكانهم التعاون في مجموعات كبيرة، يريدون الإستهلاك باستمرار ويكون ذوقهم مقننا يمكن التنبؤ به والتأثير فيه. إنه في حاجة إلى أناس يشعرون بأنهم أحرار وغير تابعين، غير خاضعين لأية سلطة ولأية مبادئ ولأي ضمير، لكنهم يكونون على استعداد ليقادوا وليعملوا ما هو مطلوب منهم، ويندمجون دون مشاكل في الآلية المجتمعية. إنه في حاجة إلى أناس يمكن قيادتهم دون عنف ودون قائد، يمكن

تحريكهم دون أن يكون لهم هدف بين أعينهم سوى الحركة، أن يعملوا ويتقدموا.

لقد نجح التصنيع الحديث في خلق مثل هذا الإنسان: الإنسان الآلي المغرب. وبهذا المعنى فإنه مغرب، بحيث إن سلوكه وقوته الخاصين قد أصبحا غريبين عنه. يقفان قبالته، وموجهان ضده. إنهما يتحكمان فيه، عوض أن يتحكم هو فيهما. تحولت قوته الخلاقة إلى الأشياء وإلى المؤسسات، التي أصبحت من جانبها بمثابة أوثان، لا تعاش كنتيجة للإجتهاد الخاص للإنسان، لكن كشيء مميز، يقترحه ثم يعيش تحت سيطرته.

إن الإنسان المغرب يركع أمام منتجات يده. وأصنامه هي التعبير الغريب عن قوته الحيوية. إن الإنسان لا يعيش ذاته كذاك الفاعل النشيط لقوته وغناه الخاصين، لكن كشيء مفقر، تابع لأشياء أخرى غير ذاته، لأنه يعكس ماهيته الحيوية على هذه الأشياء.

فالأحاسيس الإجتماعية تعكس على الدولة، وكمواطن يكون المرء مستعدا للتضحية بالنفس من أجل الآخر، في الوقت الذي يكون فيه في حياته الخاصة أنانيا ومعتادا بنفسه. ولأنه يعتبر الدولة كتعبير لأحاسيسه الخاصة، فإنه يقدسها كأحد مثله. فهو يعكس أحاسيس القوة والحكمة التي يمتلكها على القادة السياسيين، ويقدسهم بعد ذلك كأصنام؟.

و سواء أكان عاملا أو موظفا أو مديرا للشركة، فإن إنسان اليوم غريب عن عمله. فالعامل قد أصبح جزءا ذريا جد صغير للإقتصاد، يرقص لصفير المدير الآلي. ليس له تأثير على صيرورة الإنتاج ولا على ما يتبع ذلك، وقليلا ما يكون على علاقة مع

المنتوج النهائي، لكنه يكون غريبا عن هذا الأخير كشيء فعلي ومفيد. هدفه الأوحد هو أن يكون الرأسمال الذي يوظفه الآخرون مربحا. والسلعة هي تجسيد لرأس المال، وليس ما يمسه كشيء فعلي.

وقد أصبح مدير الشركة بمثابة موظف لا يرى في الأشياء والأشكال والوجود الإنساني إلا مواضيع نشاطه. يسمي تعامله مع العمال ببعلاقات إنسانية، لكن ليس في ممارسته الفعلية إلا العلاقات اللا إنسانية، لأنه ينطلق من العلاقة مع الآلة، التي أصبحت تجريدا. وقد أصبح سلوكنا الإستهلاكي غريبا كذلك. لقد أصبح محكوما من طرف النشرات الإشهارية عوض حاجياتنا الحقيقية، وما يعجبنا وما نراه أو نسمعه.

إن عدم أهمية العمل وتغريبه يقودان إلى الكسل الكلي. والإنسان يكره عمله لأنه يقود إلى الشعور بالسجن. والمثال الأعلى للإنسان الحالي هو الكسل المطلق، حيث لا حركة، مطبقا في ذلك الشعار الإشهاري لشركة كوداك: اضغطوا على الزر، ونقوم نحن بالباقي!. ويتقوى هذا السلوك عن طريق نمط من الإستهلاك، يكون ضروريا لتوسيع السوق الداخلية، ويقود إلى فرضية عبر عنها ألدونس هوكسلي Aldons Huxley في: **العالم الجديد الجميل** بقوله: لا تأجل متعة يمكنك الحصول عليها اليوم إلى الغدب، وقد تعود كل واحد منا على مثل هذه الأقوال منذ الطفولة. إذا لم أؤجل تحقيق ما أريده (وأنا مشروط بأن لا أطالب إلا بما يمكنني أن أحصل عليه)، فإنه سوف لن تكون هناك أية نزاعات ولا شكوك، وسوف لن يكون من الضروري اتخاذ قرارات. ولن يطلق سراحي أبدا، إنني دائما مشغول، إما أنني

أعمل وإما أنني ألهو. ليست هناك ضرورة لكي أكون واعيا، لأنني مشغول على الدوام بالإستهلاك. فأنا نسق من الرغبات ومن تحقيقها. لابد أن أعمل لكي أحقق رغباتي، وهذه الأخيرة تجدد وتقاد باستمرار من طرف الإقتصاد.

يشعر هذا الإنسان المغرب والمعزول بالخوف، ليس فقط لأن التغرب والعزلة يخيفان، لكن لسبب آخر خاص. إن النظام الصناعي البيروقراطي، وخاصة بالشكل الذي تطور به في المقاولات الكبرى، يشعر بالخوف في المقام الأول بسبب التناقض بين كبر المقاولة وصغر الفرد. من هنا، فإن الشعور بعدم الأمن العام يؤدي إلى الخوف، الذي يغرس في كل واحد منا تقريبا. فأغلبية الناس موظفون، وبالتالي فإنهم تابعون إلى رؤسائهم البيروقراطيين. لم يبيعوا قوة عملهم فقط، بل يبيعون في المزاد العلني شخصيتهم (ابتساماتهم، أذواقهم وصداقاتهم حتى). يخونون أصالتهم دون أن يكونوا على يقين ما إذا كان بإمكانهم الصعود أو النزول، هل سيصعدون في السلم الإجتماعي أم سيتعرضون للفقر، للعار وللفضيحة. فعلى الرغم من الرفاهية، فإن المجتمع الصناعي البيروقراطي هو مجتمع جبناء وأناس خائفين. إن الخوف من النجاح أو من عدم النجاح هو في الحقيقة جد كبير عند أناس هذا الزمن. يجب الخوف في ميدان الحياة الخاصة من هدم عام بسبب حروب نووية محتملة.

في آخر المطاف، فإن الإنسان يظهر منبهرا أمام الآلات التقنية في المجتمعات الأكثر تصنعا، عوض أن يكون منبهرا بالموجودات الحية والصيرورات الحيوية. بالنسبة للكثير من الرجال، فإن سيارة رياضية تكون أحسن من امرأة.

فالإهتمام بالحياة وبما هو عضوي قد عوض بالإهتمام بما هو تقني وما هو غير عضوي. يشعر الإنسان بالزهو باكتشاف الصواريخ والسلاح النووي، أكثر من شعوره بالحزن عندما يكتشف أن هذا الإكتشاف خطر على الحياة.

بالنسبة للمعالجين النفسيين، فإن هناك نتائج بعينها ستحدث عن هذا الوضع: إن الإنسان الذي أصبح شيئا هو إنسان جبان، ليس له أي إيمان ولا أية قناعة ولم يعد باستطاعته أن يحب حتى. يهرب في وجود فارغ، في الإدمان على الكحول، في الجنس وفي كل الأعراض المرضية النفسية، التي يمكن شرحها أحسن عن طريق نظرية الإرهاق. وهنا نصل إلى نتيجة متناقضة، تكمن في كون المجتمعات الأكثر غنى هي في الطريق لكي تصبح الأكثر مرضا، وسيقضى على كل تطورات الطب عن طريق التنامي القوي للأمراض النفسية والنفس جسدية.

كل ما سبق لا يعني أن التصنيع كما هو غير مرغوب فيه. على العكس من هذا فبدونه لم يكن باستطاعة الإنسان أن يوفر الأساس المادي لحياة إنسانية ذات معنى وشريفة. والسؤال المطروح هو على كل حال ما هو شكل النظام الصناعي؟ هل يتعلق الأمر بتصنيع بيروقراطي، يصبح فيه الفرد سنا صغيرة من أسنان القرص الذي يدير السلسلة في الآلة الإجتماعية، أم هل يتعلق الأمر بتصنيع إنساني، يتجاوز التغرب والشعور بعدم القدرة، بإدماج الفرد بتحميله المسؤولية في الصيرورة الإقتصادية والإجتماعية؟ لمثل هذا التصنيع الإنساني، من طبيعة الحال، سلسلة كبيرة من الشروط الإجتماعية والإقتصادية، لا يمكننا أن نتطرق لها هنا. لكن لابد من التأكيد على شيء مهم: إن المجتمع الصناعي

الإنساني لا يستهدف أكبر ربح لقلة قليلة، كما أنه لا يستهدف أقصى استهلاك للأغلبية الكبيرة، بل لابد أن يكون هناك حل وسط لحياة إنسانية غنية. المهم في المجتمع الصناعي الإنساني هو أن يكون الإنسان، عوض أن يمتلك أكثر وأن يستهلك أكثر. من الضروري على هذا المجتمع أن يوفر الشروط للإنسان المنتج، وليس شروط الإنسان المستهلك أو الإنسان التقني homo consumus, homo technicus. من خلال كل هذا يمكن للدول التي توجد في مرحلة العبور من مجتمعات فيودالية إلى مجتمعات صناعية أن تستخلص العبر. من طبيعة الحال لابد عليها أن تصبح دولا صناعية تلبي حاجيات سكانها، لكن من اللازم عليها أن تنظر إلى القيم السائدة في المجتمعات المصنعة بمنظار نقدي، وألا تحاول أن تقلدها. عليها أن تحقق شكلا جديدا للمجتمع، لا هو فيودالي ولا هو صناعي بيروقراطي.

في مجتمع صناعي إنساني لابد من تحقيق قيم بعينها من الماضي، عوض أن تبقى معادلات فارغة، أو عوض أن تصبح مشطبة من طرف نشوة الإستهلاك. إن شروط الصحة النفسية واستمرار الحضارة رهين بإعادة إحياء روح عصر الأنوار القريب من الواقع، مع تحريره من الأحكام العقلية القبيلة المتفائلة، وإحياء القيم الإنسانية، التي لا تعلن في خطب فقط، بل تحقق في الحياة الخاصة والحياة المجتمعية.

نزعة إنسانية جديدة
كشرط لعالم وحيد[21]

ليس هناك أي شك في كون العالم الموحد في طريق البناء. وقد يكون هذا الحدث الأكبر ثورية في تاريخ الإنسان. وتتمظهر وحدة العالم، كما يمكن للمرء أن يلاحظ، في كون كل شعوب العالم ستشارك في الإنتاج الصناعي وستنجح في التقريب أكثر -بفضل طرقنا التواصلية الجديدة- بين كل الناس. وعلى كل حل فإن التساؤل المطروح هو ما إذا كان توحيد العالم سيعلي من قيمة الحياة أم سينتهي إلى ساحة حرب كبيرة.

هل الإنسان المعاصر للقرن العشرين مهيأ بالفعل لكي يعيش في عالم موحد؟ أم هل نعيش فكريا في القرن العشرين وشعوريا (نفسيا) في العصر الحجري؟ أليس صحيحا أن إحساساتنا مشاعرنا، وعلى الرغم من كل تهييء لهذا العالم الموحد، ما تزال محكومة ببنية القبيلة؟ ألا نقتسم ذاك السلوك الذي نجده عند أغلبية القبائل البدائية؟ لا يمكن للمرء في هذه القبائل أن يثق في أي أحد آخر ما عدا أفراد القبيلة، واتجاههم فقط يحس المرء بالواجب الأخلاقي. وحتى وإن كان الأمر ركيكا، فإنه يكون موافقا للتالي: نحس بأننا متحدين مع من لهم نفس أكلنا، ونفس أغانينا ونفس لغتنا. ففي هذا النوع من البُنية القبائلية يُنظر للغريب

بحذر، ويعكس شر في النفس يعكس عليه. فأخلاق البُنية القبائلية تكون دائما أخلاقا للشأن الداخلي، ولا تكون صالحة إلا للأعضاء المنتمين لنفس القبيلة. وليس هناك -إذا رأينا ذلك من وجهة نظر إنسانية- أي فرق ولو كان جد صغير ما إذا كانت القبيلة تتكون من 100 شخص أو من ألف أو حتى خمسمائة مليون. يبقى الغريب ذاك الذي لا ينتمي لنفس القبيلة، ولهذا السبب لا ينظر له ككائن إنساني كامل.

إننا نوجد دائما وسط بُنية قبائلية، نسميها قومية. يظهر أننا نحيي القومية كتحرير كبير لأمتنا من التبعية السابقة للشعوب القوية - ويعد هذا صحيحا إلى حدود معينة-. لكننا نرى في نفس الوقت أنه ينظر للقومية، والتي ظهرت في العالم الغربي قبل مائة وخمسين سنة فقط كنتيجة للثورة الفرنسية، كشعور بالتفوق في العالم بأسره تقريبا. ويعتبر هذا تطورا جد خطير في نظرنا. ألا نعلم بأن الإنسان الموحد في العالم الموحد سوف يقضي على نفسه بنفسه في حالة ما إذا أصبحت هذه القومية شرطا تخلق أوضاعا تؤدي إلى خطر القضاء على الإنسان من طرف الإنسان نفسه. ودون نزعة إنسانية جديدة سوف لن يكون هناك أي عالم موحد.

1. حول تاريخ فكرة النزعة الإنسانية.

إنني لا أعني في واقع الأمر بنزعة إنسانية جديدة كشرط للعالم الموحد شيئا جديدا. إن عمر النزعة الإنسانية كفلسفة يناهز 2500 سنة. ليس هناك جديد في هذه النزعة، ما عدى كونها جديدة بالنسبة لنا. لقد نسينا هذه النزعة إبان الخمسين سنة المنفرطة.

ولهذا السبب أود أن أذكر الأذهان بتاريخ فكرة النزعة الإنسانية. في الحقيقة كان علي أن أتحدث عن النزعة الإنسانية الصينية والهندية، كما تمظهرت في الطاوية والبوذية. ولضيق الوقت فإنني سأكتفي بالحديث عن النزعة الإنسانية في التقليد الغربي وسأبدأ بفكرة النزعة الإنسانية في العهد القديم22.

إننا نجد تعبيرا عن فكرة النزعة الإنسانية في العهد القديم مثلا في كون الله لم يخلق إلا إنسانا واحدا، آدم. وكما تقول مصادر تلموذية، فإن هناك إشارة لشيئين. أولا لا يمكن لأي إنسان أن يقول: إنني متفوق عليك، لأن أجدادي كانوا متفوقين على أجدادك. ثانيا هناك إشارة مفادها أن الذي يعتق حياة إنسان واحد، يشبه ذاك الذي يعتق كل الإنسانية؛ والذي يقضي على حياة إنسان واحد، يشبه ذاك الذي يقضي على كل الإنسانية.

هناك تعبير آخر على فكرة الإنسانية انطلاقا من إنسان واحد في تأكيد العهد القديم على أن الإنسان قد خلق طبقا لصورة الله. وبما أن كل الناس قد خلقوا طبقا لصورة الله، على الرغم من اختلافهم، فإنهم أسوياء. وفي الأخير فإن هناك في العهد القديم دعوة مهمة للحب، غالبا ما لا ترى ولا يُعار لها أي اهتمام، لا تهم فقط حب الأقارب، لكن حب الغرباء أيضا. فالغريب هو بالضبط ذاك الذي لا نعرفه، ذاك الذي لا ينتمي لنفس القبيلة أو لنفس الشعب أو لنفس الثقافة. يقول الإنجيل: كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر (لاويين، 19، 22). فقط عندما يشعر المرء بما يشعر به الغريب، عندما يضع المرء نفسه في موضع هذا الغريب، يمكن للمرء أن يفهمه. ويمكن التعبير عن هذا بصفة عامة كالتالي: فقط

عندما يشعر المرء ما يشعر به كل كائن إنساني، يمكن للمرء أن يفهم هذا الكائن الإنساني ويمكن أن يعرف ما يشعر به.

ويجد المرء التعبير الواضح لفكرة النزعة الإنسانية في العهد القديم في التصور التنبئي بالمسيح. يُتجاوز هنا الشعور القَبلي من طرف التنبؤ القائل بأن كل الشعوب محبوبة بالتساوي من طرف الله، وليس هناك استثناء أية أمة من الأمم. يقول إشَعْيَاءَ بالنظر إلى مصر وأشور (اللذين كانا قديما العدوين التقليديين للعبرانيين): في ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى أشور فيجيء الأشوريون إلى مصر والمصريون إلى أشور ويعبد المصريون مع الأشوريين. في ذلك اليوم يكون إسرائيل ثلثا لمصر ولأشور بركة في الأرض بما يبارك رب الجنود قائلا مبارك شعبي مصر وعمل يدي أشور وميراثي إسرائيل (إشَعْيَاءَ، الإصحاح19، 23–25).

ونجد نفس النزعة الإنسانية في العهد الجديد. هنا نجد الأمر بمحبة العدو .(Mt5-44) وبين محبة العدو ومحبة الغريب ليس هناك إلا فرق ضئيل. إذا أحببت الغريب، فإنه يصبح قريبا، ويصبح«أنا»، وإذا أحببت عدوا، فإنه يكف عن عدوانيته. ومحبة العدو هو تناقض، لأنني عندما أحب الغريب والعدو لم يعد هناك أي عدو لي.

فقد تأسست الكنيسة المسيحية على أسس النزعة الإنسانية والكونية ضد الحدود الوطنية. قال المفكر المسيحي الإنساني الكبير لأواخر العصر الوسيط، نيكولاوس فون كوس Nikolaus von Kues، بأن humanitas Christi إنسانية المسيح هي ما يؤسس العالم، وأكبر حجة على وحدته الداخلية. فقد كان المسيح الإنسان بفضل إنسانيته ضمانة وحدة العالم.

ولفكرة النزعة الإنسانية جذور في التقليد اليوناني والروماني. ففي المسرحية الدرامية أنتيغون Antigone لسوفوكل Sophokl، تحارب أنتيغون ضد كريون Kreon، الذي يمكن أن يعتبر اليوم كقيصر فاشي، لأنها كانت تعطي الأسبقية للقانون الطبيعي، يعني قانون الإحساس بالآخر، على حساب قانون الدولة. فقد اختارت الموت للدفاع عن قانون الإنسانية إذا ما تعارض هذا الأخير مع قانون الدولة. فقد دفنت أخاها على الرغم من أنه خان قانون الدولة.

ولا نجد تعبيرا عن النزعة الإنسانية في أنتيغون لسوفوكل فحسب، بل كذلك في الفلسفة اليونانية والرومانية بصفة عامة. تظهر خاصة في تمثل قانون طبيعي، يعني قانون موجود في الطبيعة الإنسانية. ولهذا القانون الأسبقية على كل القوانين الأخرى وخاصة على قانون الجولة. في مسرحية أنتيغون نجد تصورا جد جميل للقانون الطبيعي عندما تتحدث أنتيغون عن الواصايا الإلهية:

إذن اليوم لا والبارحة لا، ليعش أولائك
الذين لا نهاية لهم، لا يعرف أحد متى أتوا.

ويوجد في فكر سيسيرو Cicero أوضح تعبير عن فكرة القانون الطبيعي. فقد وجد فكره في العصر الوسيط معبرا للفكر المسيحي وأثر في تطوره بقوة. فحسب سيسيرو على المرء أن يتصور الكون كمملكة يعيش فيها الآلهة والبشر. وهنا بالضبط نجد تصور مملكة لكل البشر، ليس فقط لشعب ما أو لقبيلة ما، بل لكل الناس، بحيث يكون فيها كل إنسان وفيا للإنسانية، أو كما يقول سيسيرو، يكون المنتمون لهذه المملكة من الآلهة والبشر.

ـرا لضيق الوقت، فإنه لا يمكنني الحديث عن تطور فكرة الإنسانية عند طوما الأكويني Thomas von Aquin وفي العصر الوسيط المتأخر. ما أود الإشارة إليه هو أن تصور قانون طبيعي، كما ظهر فيما بعد في القرن الثامن عشر وكما تطور بالخصوص في الفكر الأمريكي على أساس الفكرة الأمريكية لحقوق الإنسان، يتأسس في تقليد القانون الطبيعي، الذي نجده في التقليد اليوناني الروماني وكذا في التقليد اليهودي المسيحي.

لقد طور الفكر الإنساني النهضوي من بين ما طوره مفهوم الإنسانية Humanitaet، والذي أصبح منذ عصر النهضة يميز مجموع الفكر الحداثي. ومفهوم الإنسانية غير اللاهوتي هو تتمة للتقليد اليوناني الروماني واليهودي المسيحي. ومعه ستمسك النزعة الإنسانية الوسيطية الإنسان في صميم وجوده الطبيعي. إن الإنسان هو كما هو، وواجبه يكمن في تطوره بالكامل. فالإنسان المثالي بالنسبة للنهضة هو الإنسان الكوني، الإنسان المتعدد والضليع في كل جوانبه، أكثر من هذا، ففي كل فرد على حدة تتحقق الإنسانية. كل إنسان يحمل في ذاته الإنسانية بكاملها. ولهذا السبب من واجب كل إنسان أن يطور الإنسانية في ذاته.

و قد تبع الفكر النهضوي ذلك الفكر الذي سوف يمثل قمة النزعة الإنسانية في الفكر الغربي: فكر فلاسفة القرن الثامن عشر (انظر في هذا الصدد بالخصوص E. Cassier 1932, C.L. Becker 1946، انظر كذلك فيما يتعلق بتطور النزعة الإنسانية لعصر الأنوار **في النزعة الإنسانية الإشتراكية**، إريك فروم، 1961، **الأعمال الكاملة**، المجلد الخامس، ص377-382)23.

لقد طور الفكر الإنساني للقرن الثامن عشر مفهوما عاما

للوجود الإنساني. والمقصود بـ الوجود Wesen في التقليد الفلسفي باختصار كل ما يجعل من شيء ما ماهيته. فالوجود الإنساني هو ما يسمح للإنسان أن يكون إنسانا. هل يوجد هذا النوع من الوجود؟ يعتقد الكثير، إذا لم نقل أغلبية، العلماء الإنسانيين بأن هناك بالفعل شيئا يوجد بيولوجيا وتشريحيا اسمه الجوهر/ الوجود (وهذا شيء لا يمكن نفيه)، لكن لا يمكن أن يوجد هذا نفسيا. فالإنسان بالنسبة للكثير من العلماء الإنسانيين يولد كصفحة بيضاء، حيث تكتب الثقافة أو المجتمع نصوصها. على العكس من هذا فقد كان فلاسفة القرن الثامن يعتقدون بأن هناك شيء من مثل الطبيعة الإنسانية أو التكوين الإنساني يوجد، أكثر من علم التشريح وعلم الفيزيولوجيا. وقد كان فلاسفة القرن الثامن عشر يميزون، وهو تمييز لا يزال صحيحا في اعتقادنا، بين جوهر الإنسان، بين الطبيعة الإنسانية كما نجدها عموما، والشكل الخاص الذي تعبر عنه هذه الطبيعة الإنسانية في كل مجتمع وكل ثقافة. لا نلتقي بالطبيعة الإنسانية وجها لوجه، ولا نرى الإنسان على العموم. يمكن أن نستنتج الإنسان من مختلف تمظهرات الإنسان في ثقافات وفي أشخاص مختلفين. .

وكان جون جاك روسو أيضا من المؤمنين بهذا، وقد أتى بوجهة نظر جد مهمة، تبناها سنوات من بعد فرويد. لقد نبه إلى التناقض بين الميولات الإنسانية الطبيعية وضروريات المجتمع. وقد فهم فرويد هذا التناقض فيما بعد كصراع بين الشهوة الجنسية وبين أخلاق المجتمع. وقد كان يعتقد بأن العصاب Neurose ينتج عن طريق هذا الصراع. وعلى الرغم من أن فرويد، في نظرنا، لم يكن صائبا بهذا الصدد، فإن فرضيته صحيحة عموما، على اعتبار

أنه فهم التناقض، الذي لاحظه روسو، بين متطلبات المجتمع و-لنقل- متطلبات الإنسانية في الإنسان. وقد أثرت نظرية جون لوك، التي من نتائجها أنه على المرء أن يعود للطبيعة الإنسانية إذا كان المرء يريد أن يفهم ما هي الدولة، من بعد على التقليد الأمريكي وأثرت على جيفيرسون Jefferson وآخرين.

من أهم الفلاسفة الذين كتبوا عن النزعة الإنسانية الفيلسوف الألماني يوهان كوتفريد فون هردر Johann Gottfried von Herder. بالنسبة له يخلق الإنسان ضعيفا في العالم، ولا يستطيع أبدا -عكس الحيوان- الوصول إلى الهدف الذي يجب عليه، انطلاقا من تنظيمه، الوصول إليه. يجب عليه قبل كل شيء أن يتكون في الإنسانية: لأن الغريزة المكتسبة، التي يجب أن تكونه، هي العقل، الإنسانية وطريقة الحياة الإنسانية (ي. ك. هردر، 1877، المجلد13، ص 144). وهذه الأخيرة لا تعلم أي حيوان آخر، وهذا الأخير لا يمتلكها، كما أنها تمثل أعلى مراتب التطور الطبيعي. ويتفق هردر مع التصور القائل بأن الإنسان كوجود حيواني هو أضعف وغير كامل من بين الحيوانات الأخرى، لكنه يمتلك العقل كشيء خاص بالإنسان، وبتطور هذا العقل عندما يصبح أكبر كائن يمكن للتطور الطبيعي تقديمه.

وقد كان كوتهولد إفريم ليسنغ Gotthold Ephraim Lessing إنسانيا كبيرا. فقد كانت أفكاره تصب في نفس الإتجاه الذي ذكرنا. فمهمة الإنسان بالنسبة له تكمن في تحقيق النوع الإنساني. إنه يدافع كذلك على الفكرة القائلة بوجوب تحقيق وتطوير ذلك الشيء الخاص بالإنسان، جوهر الإنسان وجوهر إنسانيته، ويرى بأن هذا هو مهمة الإنسان. ومن سخريات التاريخ أن ليسنغ كان

قد تحدث مائة سنة قبل هيتلر عن الرايخ الثالث كالرايخ الإنساني الكامل، حيث تُتجاوز كل التناقضات الإنسانية عن طريق وجود واحد وانسجام الإنسان.

وأهم مفكر إنساني للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان من بطبيعة الحال هو يوهان فولفكان جوتهJohann Wolfgang Goethe وسنشير على الأقل لبعض أفكاره. كنيكولاوس فون كوس، هيردر وليسنج نجد عنده كذلك التصور الذي لا يرى الإنسان فقط في فردانيته، لكن ككائن يحمل في ذاته كل الإنسانية بكل إمكانياتها. ، على الرغم من أن هذا الكائن لا يمكنه أن يحقق، نظرا للحدود الخارجية لفردانيته، هذه الإنسانية إلا في حدود معينة (انظر H.A. Korff, 1958, Band II, S. 123). إن هدف الحياة، حسب جوته، هو التطور من الفردانية إلى الكونية. وبالنسبة لفكر القرن الثامن عشر، مرورا بجوته وماركس -كما سنوضح فيما بعد- فإن الوصول إلى الكونية لا يحدث بالتخلي عن الفردانية. لم يكن المرء يعتقد بأن الوصول إلى الكونية سيقع عندما يصبح كل الناس سواسية ويشعرون بأنهم موحدون، بل إن المرء كان يعتقد بأن الإنسان سيصل إلى إنسانيته الخاصة -وهذا يعني إلى الإنسانية عامة- عن طريق المرور بتجربة فردانيته الكاملة. فالبنسبة لفلاسفة الأنوار، يشعر الإنسان أنه موحد مع كل شيء، لأنه قد أصبح هو ذاته. وإذا لم يصبح الإنسان هو ذاته وبقي، من وجهة نظر نفسية، إنسانا ميتا مع الولادة، فإنه سوف لن يصبح أبدا هو ذاته، ولن يكون بإمكانه الوصول إلى الإنسانية التي يحملها في ذاته.

نجد تعبيرا واضحا عن إنسانية جوته في مسرحيته الدرامية إيفيجيني الطوريسي Iphegenie auf Tauris، المقتبسة من المسرحية

اليونانية **إيفيجيني الأوريبيدي** Iphigenie von Europide. وملخص مضمون هذه المسرحية هو: كان من اللازم تقديم إيفيجيني، ابنة أجاميمنون Agamemnon، كقربان للآلهة من أجل إرسال رياح مواتية للسفن اليونانية. وقبل أن تقتل حملتها الإلاهة خيرة إلى جزيرة متوحشة، التي كانت محكومة من طرف الملك طاووس Thoas. وأقنعت إيفيجيني هذا الأخير الكف عن تقليد كان يمارسه والمتمثل في قتل كل غريب وصل إلى الجزيرة. تبدو لنا هذه التقاليد الوحشية غريبة، لكنها في الواقع ليست كذلك. فالغريب، كما سبق وأن قلت، هو كل إنسان يجد نفسه خارج القبيلة. لا يعتبر إنسانا كالذي ينتمي إلى القبيلة. وفي نهاية الأمر عين الملك إيفيجيني كراهبة لمعبد أرتميس Artemis. أصبح الملك ظريفا معها وأصبح يثق فيها. وفي يوم من الأيام أتى أخوها أوريست Orest مع صديق له. اقترحا عليها الهروب دون علم الملك والرجوع إلى اليونان وسرقة تمثال أرتيمس. وقد نجحا في ذلك بعد متاعب كبيرة في الدراما اليونانية.

نجد نفس الشيء عند جوته، ذلك أن إيفيجيني توافقه في أول الأمر، لكنها تغير وجهة نظرها، لأنها لم تكن قادرة على خيانة الملك الذي كان قد وضع ثقته فيها. كان عليها أن تختار -كما قد نقول حاليا- أن تختار بين شرين، مع العلم أن أكبرهما هو تعرضها للموت هي نفسها وقيادة أخيها وصديقه كذلك لنفس المصير، أما الشر الثاني فهو خيانة الملك. عندما نكون مضطرين اليوم للإختيار بين شرين، فإننا غالبا ما نختار الشر الصغير، ناسين باختيارنا هذا بأننا لا نعمل شيئا آخر غير تأخير الشر الكبير قليلا.

وإيفيجيني لا تريد اختيار واحدا من هذين الشرين، لكنها

تحاول أن تجد بديلا يمكنه أن يقودها إلى اختيار ثالث، يعني إلى إمكانية الوجود كإنسان. وهذا البديل الثالث يكمن في قول الملك الحقيقة ونهج سلوك وجود إنساني كامل. قد تتعرض للقتل من طرفه، لكنها تتجنب الشرين الآخرين، غير المقبولين أخلاقيا. تقول الحقيقة للملك، ويجيب هذا الأخير:

ألا يستنبط سكيطا Skythe الغليظ، المتوحش
صوت الحقيقة والإنسانية
التي لا يعيها أرترويس Artreus اليوناني؟
وتجيب إيفيجيني:
إن كل واحد
ولد تحت السماء
يسمعها

في دراما جوته يتأثر الملك بصوت الحقيقة والإنسانية، ويسمح لإيفيجيني وأخيها وصديقه بالرحيل إلى بلدهم.

وتعتبر دراما جوته هذه مهمة، لأنها تثق بصوت الحقيقة والإنسانية كحل يمكنه إغاثة الإنسان، حتى وإن كان الأمر يبدو وكأنه اختيار بين شرين. إنني أعتقد أن الحل الذي قدمه جوته هنا جد مهم لوقتنا الحاضر. يظهر على أننا سجيني بدائل مختلفة. لهذه البدائل أسماء مختلفة، لكنها تعتبر كلها بدائل هدامة. وإذا أخذنا التقليد الإنساني لثقافتنا مأخذ الجد، فإننا سنكون مضطرين للتفكير الجدي في ما إذا لم يكن وراء كل البدائل المعروفة إمكانيات أخرى، وإذا لم تكن الإمكانية المهمة هي صوت الإنسانية والحقيقة.

و قد كان جوته إنسانيا كذلك -ولابد من الإشارة إلى هذا

الأمر-، لأنه كان يعارض كل قومية. في أواخر حياته الطويلة، لم تكن القومية قوية في فرنسا فقط، بل كذلك في ألمانيا. وقد عششت هذه القومية في الحروب بين نابليون والألمان - وهي الحروب التي كان الألمان يسمونها حروب التحرير-. بالتأكيد إن جوته كان من الألمان الكبار، وعلى الرغم من ذلك فإنه كان يرى، عندما هزم نابليون سنة 1814 من طرف جيش التحرير الألماني، بأن الشعب الألماني لا يساوي شيئا، وكل الأهمية مركزة على الفرد الألماني، حتى وإن كان الألمان يعتقدون العكس. وكان من الأحسن أن يوزع الألمان، كاليهود، على كل الأرض، لكي يتركوا كل ما هو خير فيهم ينتشر لما فيه خير الإنسانية. ففي رسالة (ليوهان ياكوب هوتينغر Johann Jakob Hottinger) يكتب يوم 15 مارس1799: في هذه اللحظة، حيث إن المرء مشغول في كل مكان بخلق أوطان أم جديدة، فإن الوطن الأم بالنسبة للمفكر الحر، الذي يمكنه أن يكون ضد زمانه، لا يوجد في أي مكان ويوجد في كل مكان.

ويظهر هذا كم قاوم جوته ضد كل أمواج القومية. وقد كانت هذه الأخيرة عكس كل نزعة إنسانية، التي انتشرت في الثقافة الغربية من القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن عشر، والتي وجد جوته في نقطتها النهائية في القرن التاسع عشر. ومن سخريات التاريخ أن الثورة الفرنسية، التي بنيت جوهريا على الفلسفة الإنسانية والتي تأثرت بها، كانت قد سقطت كذلك في فخ القومية. فقد أتت الثورة الفرنسية بصنم جديد: الدولة الوطنية. وفيها اتحدت القومية مع الثورة الصناعية. فالدولة الوطنية تمثل المصالح الإقتصادية القومية وتوظف سلطتها والمشاعر الوطنية لتفرض المصالح الإقتصادية داخل الدولة الوطنية.

لقد بدأت القومية مع الثورة الفرنسية وإبان الحروب الفرنسية الألمانية . ومع توحيد ألمانيا بعد1871انتشرت هذه القومية بقوة في ألمانيا ، وتبنتها بعد ذلك روسيا الستالينية وروسيا الحالية ، الإتحاد السوفياتي . وقد وجدت أحلك تعبير لها في حربين عالميتين وفي احتمال حرب عالمية ثالثة بأسلحة نووية .

ومن بين مَن شخص هذا المرور من النزعة الإنسانية إلى النزعة القومية ، وعبر عن هذا المرور بطريقة شاملة هو الشاعر البلجيكي إيميل فيرهيرين Emile Verhaeren . لقد كان قبل سنة 1914 من دعاة السلام ، إنساني واشتراكي ، وتحول ككثير من الناس تحت ضغط حرب 1914 من النزعة الإنسانية إلى النزعة القومية . يقول في كتاب يهديه لنفسه : إن الذي كتب هذا الكتاب ، والذي لا يخفي حقده ، كان فيما مضى سلميا . لم تكن هناك بالنسبة له أية خيبة أمل أكبر ولا أبغض . وقد ضربته هذه الخيبة بعنف ، لم يعد فيه ذاك الشخص الذي كان من قبل ، ويظهر له أن وضع الحقد هذا الذي يوجد فيه قد صغر وعيه ، يهدي هذه الصفحات إلى ذلك الإنسان الذي كان . وعلى الرغم من أن كلمات هذا الشاعر تظهر كبر التغيير الذي يمكن أن يحدث في إنسان ما ، فإنها تعبر في الَحقيقة كذلك عن التغيير في المناخ الثقافي والإجتماعي من النزعة الإنسانية للقرن الثامن عشر إلى النزعة القومية للقرنيين التاسع عشر والقرن العشرين .

وقد وجدت النزعة الإنسانية للقرن الثامن عشر أهم تعبير لها في القرن التاسع عشر في الأفكار الإشتراكية المختلفة وخاصة في فكر كارل ماركس . قد يبدو هذا مفاجأة للكثيرين ، لأنه قيل بأن فكره مادي ، وهذا فهم خاطئ لفكره ، كما لو أن أهم ما يحرك

الإنسان هو دافعه المادي . إن ما وقع لماركس يشبه ما وقع للإنجيل : يستشهد به كثيرا على الرغم من أنه لم يُفهم إلا بشكل تقريبي . ومن سوء الحظ أن أهم مؤلفات ماركس (die Oekonomisch -philosophischen Manuskripte aus dem Jahre 1844)، وهو من بين أهم النصوص الفلسفية حول الإنسان، لم يترجم إلى الإنجليزية إلا قبل سنة . وهذا الكتاب لماركس يوضح بأن فلسفته كانت تتمة مباشرة لسبينوزا، هيجل وجوته، وبأن الماركسية التي يمثلها الإتحاد السوفياتي، لا تمت بصلة بماركس إلا بالقدر الذي فيه صلة بين باباوات عصر النهضة بتعاليم المسيح .

ولكي لا أبقى نظريا، فإنني أترك الكلمة، باستحضار بعض النصوص، لماركس. كسبينوزا وجوته ، فإن الهدف الرئيسي لماركس كان هو الإنسان غير التابع والحر : إن جوهرا ما (وجودا ما) يصبح غير تابع (حرا) عندما يقف على رجليه، ويمكنه أن يقف على رجليه عندما يمكنه أن يقوم بذلك بفضل وجوده Dasein الشخصي . إن الإنسان الذي يعيش تحت رحمة إنسان آخر يعتبر نفسه كوجود تابع (= MEW Erg. I., S. 544fdie Oekonomisch -philosophischen Manuskripte aus dem Jahre 1844, MEGA I, 3, S. 124) إن الإنسان يحضر وجودا أحادي الجانب بطريقة فريدة من نوعها، يعني كإنسان كامل، انظر كذلك = MEGA I, 3, S. 118) MEW Erg. I, S. 539).

ونجد تصور الإنسان الكامل ابتداء من عصر النهضة مرور بسبينوزا ولايبنتز وجوته إلى ماركس : كل العلاقات الإنسانية اتجاه العالم النظر والسمع والشم والذوق والشعور والتفكير والمشاهدة والإحساس، والإرادة، والنشاط، والحب، باختصار كل أعضاء

فردانيته . . . هي ملك للحقيقة الإنسانية . . . إن الملكية الخاصة قد جعلتنا بلداء وأحادي الجانب، بحيث إن شيئا ما يكون ملكنا فقط عندما يكون لنا، ويوجد كرأس مال لنا، أو يمتلك مباشرة من طرفنا، يُأكل، يُشرب، نحمله على أجسادنا، نسكنه إلخ، باختصار نستعمله . . . فقد عوض معنى الإمتلاك كل المعاني الجسدية والروحية، ببساطة هناك استلاب هذه المعاني. وقد اختزل الوجود الإنساني إلى هذا الفقر المطلق لكي يولد غناه الداخلي منه نفسه (المرجع السابق).

هناك تأكيد آخر، يميز كل تفكير إنساني، يهتم بحيوية/ نشاط وخمول الإنسان. ولهذا التأكيد علاقة خاصة بمسألة الحب. إن أهم سؤال بالنسبة للغالبية منا هو: من يحبني؟، أي الرغبة في أن يكون المرء محبوبا؛ لكن بالنسبة لماركس -كما هو الشأن بالنسبة لسبينوزا- فإن الأمر يتعلق أكثر بقدرتنا على أن نحب، يعني أن الأمر يتعلق بالحب كقدرة نشيطة. يقول ماركس في Oekonomisch-philosophischen Manuskripte aus dem Jahre 1844 (MEGA I, 3, S. 149 = MEW Erg. I., S. 567: إذا أحببت دون أن تنتج حبا متبادلا، يعني إذا لم ينتج حبك حبا متبادلا، عندما لا تصبح إنسانا محبوبا عن طريق تعبير حبك كإنسان حي، فإن حبك هو دون شك تعاسة.

2. أهمية النزعة الإنسانية للوقت الحاضر

بعد هذا العرض المقتضب لتاريخ النزعة الإنسانية في التراث الغربي إلى حدود القرن التاسع عشر، أود الآن التطرق إلى جانبين من هذه النزعة مهمين لوقتنا الحاضر.

يعتبر الجانب الأول علميا ويتعرض لمسألة ما إذا كان يوجد هناك " جوهر إنساني " . لقد كان المرء في القرن الثامن عشر متفائلا فيما يتعلق بهذا الأمر : فقد كان التصور العام يكمن في كون الإنسان عقلا حسنا يسهل توجيهه والتأثير فيه لكي يصل إلى الخير . ويعتقد اليوم ، كما قال راينهولد نيبور Reinhold Niebur وآخرون ، بأنه من السيئات الإعتقاد الساذج في خَيرية الإنسان . في اعتقادي أننا لم نعد في حاجة إلى مثل هذه الإنذَارات اليوم ، لأن العصر الذي عشناه ونعيشه قد قدم لنا الكثير من الحجج على لاعقلانية وحُمق الإنسان . ولهذا السبب لا يجب أن يُؤكد لنا كل يوم سوء الإنسان . والأسئلة المهمة بالنسبة لعلم الإنسان هي : ما هو جوهر الإنسان؟ ماذا يمكن وصفه بموضوعية باستثناء الإنسان؟ لقد عالجت مثل هذه الأسئلة في كتابي **سبل الخروج من مجتمع مريض** (إريك فروم ، 1955 أ ، **الأعمال الكاملة** ، المجلد الرابع) . وما أريد التأكيد عليه هنا هو فقط كون الإنسان ليس مادة ، وبأن الإنسان ليس إما خيرا وإما سيئا . لكن هناك شيئا يحتفظ على نفسه في هذا الأمر . ولهذا السبب ، فإن جوهر الإنسان هو جوهر مؤسس -(ولنقل مع هيدجر - تأسيسي) وفي اعتقادي أن هذا الأخير هو بالضبط تناقض وجودي . وفي لغة تقنية نوعا ما يمكن للمرء أن يقول بأن جوهر الإنسان هو ذاك التناقض بين الإنسان كحيوان يعيش في الطبيعة ، وبين الإنسان كالوجود الوحيد في الطبيعة الذي يعي ذاته . ولهذا السبب ، فإنه بإمكان الإنسان أن يكون واعيا بانشقاقه عن نفسه ، بضياعه وبضعفه ، وعليه أن يجد سبيلا للوحدة مع الطبيعة ومع الناس الآخرين . فإذا كان الإنسان قد خلق وحيدا ، أو فريدا ، ووعى انشقاقه عن العالم ، فإنه

سيصبح أحمقا إذا لم يجد إمكانية لتجاوز هذا الإنشقاق والوصول إلى وحدة وجودية جديدة.

إنني أعتقد بأن تاريخ الدين وتاريخ الإنسان كإنسان وتاريخ كل واحد على حدة، يوضح بأن هناك طريقين، تجاوز الإنشقاق والوصول إلى وحدة الوجود. يمكن للمرء أن يجد الطريق الأول في كل الديانات البدائية. وهدف هذه الأخيرة هو رجوع الإنسان إلى الطبيعة، ورجوعه إلى حالة الحيوان ما قبل الإنسان ومسح ما هو إنساني خاص به: عقله ووعيه بذاته. وسبل مثل هذا المسح متنوعة: عن طريق المخدرات، عن طريق السحر (العربدة)، أو ببساطة عن طريق تقمص الحيوانات، بتقمص المرء نفسه لحيوان ما -و خاصة الدببة والأسود والذئاب-. وهنا يحاول المرء تجاوز الشعور بالإنشقاق عن طريق الكف عن أن يكون المرء إنسانيا والرجوع إلى حالة الطبيعة، حيث كان الإنسان جزء من هذه الأخيرة وبإمكانه أن يصبح حيوانا. لكن لا يمكن للإنسان أن يتقهقر. ويعبر الإنجيل عن هذا رمزيا كالتالي: عندما غادر آدم وحواء الجنة -يعني وضعية الوحدة، حيث لم يكن الإنسان قد خلق كإنسان- قام ملاكين بسيوف من نار بحراسة باب الجنة.

لكن هناك إمكانية أخرى للوصول إلى الوحدة. ويظهر أن الجنس البشري قد عثر على هذا الحل بين 1500 و500 قبل الميلاد في الصين والهند ومصر وفلسطين واليونان: يمكن للإنسان الوصول إلى وحدته دون الرجوع إلى الوراء عن طريق تطوير قوته الإنسانية الخاصة للعقل وللحب بمقدار يصبح العالم منزله. إذن سيصبح إنسانيا كاملا وسيعيش في تناسق/ انسجام جديد مع ذاته ومع الناس الآخرين ومع الطبيعة حتى. وقد كانت هذه فكرة الوحي

المسيحي وفكرة الفكر الديني في العصر الوسيط المتأخر. وقد كانت هذه فكرة النزعة الإنسانية للقرن الثامن عشر. وبالفعل فإن هذا هو نواة الفكر الديني والروحي للتقليد الغربي: من واجب الإنسان أن يطور إنسانينه وسيجد في تطوير هذه الأخيرة انسجاما جديدا. وهذه الأخيرة هي الطريق الوحيد لكي يحل مشكله: الوصول إلى الميلاد الكامل.

فبمجرد ما نولد تصبح الحياة بالنسبة لنا سؤالا من اللازم أن نجيب عنه، وهو سؤال لا يمكن أن نجيب عنه عن طريق عقلنا ومُخنا، بل عن طريق كل وجودنا الإنساني. وليس هناك إلا جوابَان: إما أن نتقهقر أو نطور إنسانيتنا. إن الكثير من الناس، إذا لم نقل أغلبية الناس، يحاولون اليوم تجنب الجواب وملأ الوقت بما يسمنوه ترفيها وتخريبا وحرية إلخ. وفي اعتقادي أن هذا الحل ليس حلا في الواقع، لأن الناس سائمون ومكتئبون، حتى ولو لم يكونوا واعين بذلك.

الإحالات والمراجع

1- لنظرية Bezogenheitstheorie علاقة وطيدة بعلم النفس الإجتماعي التحليلي، وبالضبط بنظرية العدوانية. ذلك أن الفرويدية مثلا كانت تعتبر العدوانية من بين الغرائز «الفطرية» في الإنسان، إلا أن فروم اعتبر العدوانية ممكنة فقط في إطار علاقة الإنسان بإنسان آخر أو بحيوان أو بشيء، يكون موضوع هذه العدوانية.

2- إريك فروم: «التلمود وفرويد»، حوار مع جيرار كهوري. **Le Monde de Dimanche**، باريس (21 . 10 . 1979)، ص 15.

3- للمزيد من التفاصيل، انظر مجلة **مدارات فلسفية**، عدد

4، حيث قمنا بترجمة نص جد مهم لفونك حول أهمية فكر فروم في الوقت الراهن.

4- «باسم الحياة». حوار مع هانتس يورغن شولتز في: إ. فروم، حول حب الحياة. شتوتغارت، 1983، ص 110-142.

5- في حوار مع جيدو فيراري: Il Coraggio di essere. Interview mit Guido Ferrari, Bellinzona (Edizione Casagrande) 1980.

6- نفس المرجع السابق.

7- الترجمة العربية للمصطلح الألماني الأصلي الذي يستعمله فروم Entfremdung هو مصطلح «التغريب». وقد فضلنا استعمال مصلح «الإستيلاب» نظرا لكون مصطلح «التغرب» أو «الإستغراب» في الثقافة العربية يعني قبل كل شيء الإلحاق بالثقافة الغربية. وإنني مدين للأستاذين الوقيدي وسبيلا بهذا التدقيق المصطلحي للكلمة.

8- نفس المرجع السابق.

9-«باسم الحياة». حوار مع هانس يورغن شولتس. Ueber die Liebe zum Leben, Stuttgart (Deutsche Verlags-Anstalt) 1983, S. 110-142.

10- في حوار مع جيدو فيراري: Il Coraggio di essere. Interview mit Guido Ferrari, Bellinzona (Edizione Casagrande) 1980

11- د. راينر فونك من آخر تلامذة ومساعدي فروم، وهو رئيس الجمعية العالمية لإريك فروم والوارث الشرعي لكل ما خلفه فروم من أعمال فكرية.

12- إريك فروم، **الأعمال الكاملة**، المجلد 11: **التحليل النفسي السياسي**، شتوتغارت، 1999، ص. 271 إلى ص. 283
كتب النص الأصلي سنة 1961.

13- أو الضجر، أو الملل، أو الغم أو الهم، وهي كلمات تؤدي نفس المعنى.

14- يستعمل فروم كلمة Passif التي تعني المطاوعة والاستسلام، ونفضل أن نترجمها بكلمتي غير نشيط أو غير حيوي لأنهما تعبران أكثر عن مضمون دراسته هذه.

15- الحزن، الكآبة، الغم، الكربة، الكدر.

16- Theodor Reik

17- Elton Mayo

18- Western Electric Company

19- Hawthorne

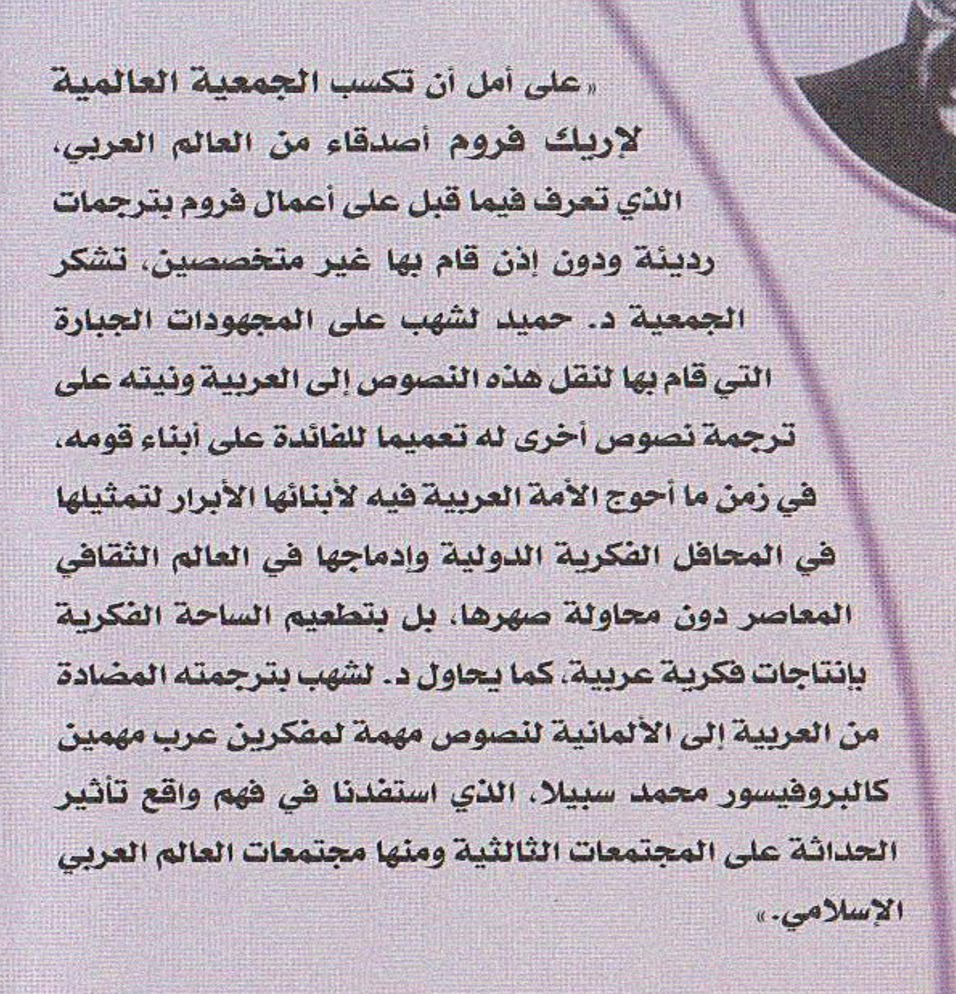
20- المقصود هنا الكتاب المقدس «العهد القديم» Alten Testament.

21- إريك فروم. **الأعمال الكاملة**. المجلد11. Deutsche Verlags-Anstalt, Stuttgart, 1999, S. 553-577.. كان بالأحرى ترجمة كلمة «وحيد» بكلمة موحد، لأن الذي يقصده فروم هو هذا بالضبط. لكننا أبقينا على كلمة «وحيد» التي تقابل العبارة الألمانية: Voraussetzung fuer die eine Welt.

22- [المقصود هنا هو العهد القديم من الكتاب المقدس (المترجم)]

23- إشارة المترجم.

فهرس



«على أمل أن تكسب الجمعية العالمية لإريك فروم أصدقاء من العالم العربي، الذي تعرف فيما قبل على أعمال فروم بترجمات رديئة ودون إذن قام بها غير متخصصين، تشكر الجمعية د. حميد لشهب على المجهودات الجبارة التي قام بها لنقل هذه النصوص إلى العربية ونيته على ترجمة نصوص أخرى له تعميما للفائدة على أبناء قومه، في زمن ما أحوج الأمة العربية فيه لأبنائها الأبرار لتمثيلها في المحافل الفكرية الدولية وإدماجها في العالم الثقافي المعاصر دون محاولة صهرها، بل بتطعيم الساحة الفكرية بإنتاجات فكرية عربية، كما يحاول د. لشهب بترجمته المضادة من العربية إلى الألمانية لنصوص مهمة لمفكرين عرب مهمين كالبروفيسور محمد سبيلا، الذي استفدنا في فهم واقع تأثير الحداثة على المجتمعات الثالثية ومنها مجتمعات العالم العربي الإسلامي.»

د. راينر فونك،

محلل نفسي وفيلسوف

الثمن : 26 درهم